

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف
لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الخمسون

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة /عبد الرزاق باشا السنهورى

القاهرة



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الخمسون

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٩

* (قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ) : قال : أتقلدون آباءكم ولو جئتكم بأكثر هدى مما وجدتموهم عليه ؟! وسيأتى فى الشرح مزيد إيضاح .

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) : فتأمل كيف كانت عاقبتهم .

التفسير

٢٤ - (قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) :

حكى الله قبل هذه الآية أنه - تعالى - ما أرسل فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لحكاية بقية ما جرى بين الرسل المنذرين السابقين وبين أممهم ، تسلية لنبيه محمد ﷺ عن قول قريش فى آية سبقت هذه القصة مباشرة : (إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ)[١]

ومعنى الآية : قال كل نذير من الرسل السابقين لقومه : أتهتدون بآبائكم ولو جئتكم بدين أهدى مما وجدتم عليه آباءكم من الضلالة ؟ قالوا لرسلهم : إنا ثابتون على دين آبائنا (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) .

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٢٢ .

وعبر بقوله : (بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ) مع أنهم ليسوا على شيء من الهدى مجاراة لقولهم : إنهم على هدى ، أو أفعل التفضيل هنا على غير بابه ، والمراد أن ما جاءهم به هو الهدى دون ما عليه الآباء .

٢٥ - (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) :

فانتقمنا من الأمم المكذبة لرسلها بعذاب الاستئصال ، فتأمل - أيها الرسول - كيف كانت عاقبة المكذبين لرسلهم ، وسوف يلاقى قومك مثل جزائهم إن أصروا على كفرهم فلا تحزن عليهم .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) : براء : مصدر بَرِئَ ، بمعنى تباعد ، والوصف منه : برىء ، ويستعمل براء بدلًا من برىء للمبالغة فى البراءة ، ولا يثنى ولا يجمع كشأن المصادر ، فيقال : رجلان بَرَاء ورجالٌ بَرَاء ، أمَّا بَرِىء فيثنى ويجمع فيقال : بريئان وبريئون وبرآءُ .

(إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى)[1] أى : ابتدأنى واخترعنى ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : كنت لا أدرى ما فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى : ابتدأتها . ولفظ « إِلَّا » فى قوله : (إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى) بمعنى لكنْ .

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ) : وجعل الله ، أو جعل إبراهيم كلمة التوحيد المفهومة من قوله : (إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى) - جعلها - كلمة باقية فى ذرية إبراهيم .

(١) فطر : من باب نصر .

التفسير

٢٦ ، ٢٧ - ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ :

الكلام فى قصة إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه وقومه ، تمهيد لما فيه أهل مكة من العناد والحسد والابتعاد عن تدبر الآيات ، وأنهم لو قلدوا آباءهم لكان الأولى بالتقليد الأفضل الأعلم الذى يفتخرون بالانتماء إليه ، وهو إبراهيم - عليه السلام - فكأنه بعد لومهم على التقليد لغيرهم يلومهم على تخصيص آبائهم الوثنيين بالتقليد ، وترك تقليد أبيهم إبراهيم الذى ترك فيهم كلمة التوحيد .

ومعنى الآيتين : واذكر - أيها الرسول - لقومك وقت قول إبراهيم - عليه السلام - لأبيه آزر وقومه : إننى برئ أشد البراءة مما تعبدونه من دون الله ، لكن الذى خلقنى وابتدعنى فإنه سيهدينى بعد توحيده إلى سواه من المعارف الإلهية .

٢٨ - ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ :

وجعل الله - أو إبراهيم - كلمة التوحيد التى دان بها إبراهيم بين أبيه وقومه الوثنيين - جعلها - باقية فى ذريته ، حيث أوصى بها بنيه ويعقوب ، وفى ذلك يقول الله - تعالى - فى سورة البقرة : « وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ » الآية ١٣٢ .

وقد قامت ذريته من الأنبياء والصالحين والمتأملين فى آيات الله فى الجاهلية - قامت ذريته - بالدعوة إلى التوحيد ، لكى يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد الله - تعالى - ومن هؤلاء الموحدين فى الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل ، فقد دان بالتوحيد مخالفًا قومه ، وفى ذلك يقول :

أربًّا واحدًا أم ألفَ رب أَدِينُ إذا تقسمت الأُمور

تركت اللّات والعُزّى جميعًا كذلك يفعل الرجل الخبير

فَلَا العُزّى أدين ولا ابْنَتَيْهَا كذلك يفعل الرجل الخبير

وَلَا هُبَلًا أزور وكان ربًّا لنا فى الدّهر إذ حُلْمِى[1] صغير

وقال أُمية بن أبى الصَّلت :

إلٰهُ العَالَمِينَ وكل أرض وربُّ الرّاسيات من الجبال

بناها وابتنى سبعا شِــدَادا بلا عمد يُرَيْنَ ولا رجال

وسواها وزينها بنـــور من الشمس المضيئة والهلال

ومن شُهُب تلأْلأُ فى دجاها مراميها أشد من النصال

وشق الأرض فانبجست عيونًا وأنهارا من العذب الزلال

وبارك فى نواحيها وزكّى بها ما كان من حَرْث ومال

وكل مُعَمّر لابد يوماً وذى دنيا يصير إلى زوال

وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع والنكال

وحل المتقون بدار صدق وعيش ناعم تحت الظلال

لهم ما يشتهون وما تمنوا من الأفراح فيها والكمال

* * *

(١) حلمى صغير – بضم الحاء – أى : عقل صغير .

(بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(جَآءَهُمُ الْحَقُّ) : القرآن .

(وَرَسُولٌ مُّبِينٌ) : ورسول ظاهر الرسالة ، من أبان ، بمعنى : اتضح وظهر ، ويستعمل لازمًا كما جاء هنا ، ومتعديًا كقولك : أبنت الكلامَ ، أى : أوضحته .

(عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) : على رجل من إحدى القريتين عظيم بالمال والجاه ، والمراد بالقريتين مكة والطائف .

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ) : أهم يعطون النبوة التى هى نعمة ربك – أهم يعطونها – لمن يشاءون ، فأى شأن لهم بها ؟ ! .

(لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا) : ليسخر بعضهم بعضًا فى مصالحهم ، فيكون بعضهم سببًا لمعاش بعض .

التفسير

٢٩ـ (بَلْ[١] مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ) :

أى : بل متعت أهل مكة المعاصرين للرسول ﷺ وآباءهم بالإمهال فى الدنيا والنعمة ، وهم على ما هم عليه من الوثنية ، حتى جاءهم القرآن بالتوحيد وهو الحق من ربهم ، وجاءهم رسول ظاهر الرسالة من عند الله تعالى ، بما أيدناه به من المعجزات الباهرات ، وكان عليهم أن يتركوا ما هم عليه من الوثنية والاشتغال بمتاع الحياة الدنيا ، بعد أن جاءهم الحق الذى كان عليه إبراهيم – عليه السلام – على لسان الصادق الأمين ، ولكنهم عكسوا فجعلوا ما هو سبب للطهر من أدران الماضى والرجوع عنه – جعلوه – سببًا للتوغل فيما كانوا عليه من ضلال مبين ، ووصف هذا الحق بأنه سحر مبين ، وكفروا به ، كما حكاه الله بقوله :

٣٠ـ (وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ) :

وحين جاء قريشًا القرآنُ الذى هو حق من ربهم ليخلصهم من ضلالهم ، ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا شرًّا ، وضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به ، فسموا القرآن سحرًا وكفروا به ، واحتقروا رسول الله ﷺ وذلك ما حكاه الله بقوله :

٣١ـ (وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ) : مكـة والطائف . (عَظِيمٍ) : فى قومه بالرياسة والجاه والمال ، يعنون بهذا الرجل الوليد بن المغيرة المخزومى من مكة ، وحبيب بن عَمْرو بن عُمَيْر الثقفى من الطائف .

وقال قتادة : الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى ، وكان الوليد رجلًا ثريًّا له رياسة وجاه فى قومه بمكة ، وكانوا لذلك يسمونه ريحانة قريش ، وكان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقًّا لنزل علىَّ أو على أبى مسعود – يقصد بأبى مسعود عروة بن مسعود الثقفى ، وكان يكنَّى بأبى مسعود .

---

(١) بل للإضراب الانتقالى من قوله –جل شأنه– : « لعلهم يرجعون » إلى مجىء الحق وكفرهم به ، فكأنه قيل : بل لم يرجعوا إلى الحق بل كفروا به ، كما سيتضح من الشرح التالى .

وهذا لون آخر من إنكارهم للنبوة ، وذلك أنهم أنكروا أولًا أن يكون النبي بشرًا ، ثم لما بُكِّتوا بتكرير الحجج على أن النبوة لا يصح أن تكون من الملائكة ، بل يجب أن تكون من البشر ، ولم تعد لهم حجة على دعواهم أن يكون الرسول مَلَكًا ـ لمَّا حدث ذلك ـ جاءُوا بالإنكار من وجه آخر ، فتحكموا على الله أن يكون الرسول أحد هذين الرجلين .

وتعبيرهم عمَّا جاء به الرسول بكونه قرآنًا ، ليس من باب اعترافهم به ، بل هو من باب الاستهانة ، وكأنهم قالوا : لو كان هذا الذى يدعيه محمد قرآنًا حقًّا من عند الله لنزل على أحد هذين الرجلين .

وما كان محمد ﷺ بأقل منهم شرفًا ، فهو من أعظمهم حسبًا ، ولا ينقص من قدره أنه كان قليل المال ، وقد غفل هؤلاء المنكرون عن أن الرسالة إنما تستدعى عظيم النفس ، بالتخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل وعلو الهمة ، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية ، ولذا دانت لمحمد ﷺ الجزيرة العربية فى حياته ، ومكن الله لدينه فى أنحاء الأرض ، واستخلف أمته على كثير من بقاعها ، وفاءً بوعده تعالى : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ . . . »(1)

٣٢ـ (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) :

فى هذه الآية استنكار وتعجيب من تحكمهم بنزول القرآن على من أرادوا ، والرحمة يجوز أن يكون المراد منها عمومها وتدخل النبوة فيها ، ويجوز أن يراد منها النبوة ، وعلى هذا يكون المراد من قسم الرحمة إعطاءها لا تقسيمها ، أما على المعنى الأول فالمراد من قسمها تقسيمها وهو الظاهر .

والمعنى : أَلَهُمْ حَقٌّ فى تقسيم رحمة ربك فيجعلوا قسمًا منها وهو النبوة لمن أرادوا ؟ نحن قسمنا من رحمتنا أسباب معيشتهم فى الحياة الدنيا ، قسمة تقتضيها الحكمة ، ولم نفوض

---

(١) سورة النور ، من الآية : ٥٥ .

أمرها إليهم ، لعجزهم عن تدبيرها ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات متفاوتة فى الرزق وغيره من مظاهر الحياة ، فمنهم ضعيف وقوىٌّ ،وغنىٌّ وفقير ، ورئيس ومرءوس ، وحاكم ومحكوم ، ليسخر بعضهم بعضًا فى مصالحهم ، ويستخدموهم فى مهنهم حتى يتعايشوا ، لا لكمال فى الموسع عليه ، ولا لنقص فى المقتر عليه ، فنحن الذين نقسم رحمتنا لا هم ، ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لهلكوا .

فإذا كانوا فى تدبير خاصة أمرهم بهذا العجز ، فما ظنهم بتدبير أمر الدين ؟! ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة التى هى من رحمة الله ، واختيار مَنْ يصلح لها ويقوم بأمرها ، ورحمة ربك بالنبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ، أو رحمته بالهداية إلى الإيمان خير مما يجمعون من حطام الدنيا ، فالعظيم من رُزق تلك الرحمة دون حطام الدنيا ،فلا وجه لتعاليكم على محمد بمال أو بجاه .

(وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) : ومصاعد عليها يصعدون إلى عوالى قصورهم .

(وَسُرُرًا) : جمع سرير ، ويطلق على مكان النوم المعروف ، وعلى الكرسى الذى يجلس عليه ، وهو المراد هنا ، ولذا جاء بعد السرر . قوله — سبحانه — : (عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ) .

(عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) أى : يتربعون ، ومنه قوله ﷺ : « أنا لا آكُلُ متَّكِئًا » أى : متربعًا على الهيئة التى تدعو إلى كثرة الأكل ، وكان يأكل مستوفزًا غير متربع ولا متمكن ، وليس المراد به الميل على شق كما يظنه بعض عوام الطلبة . انتهى من القاموس .

ويطلق السرير أيضًا على الملك والنعمة وخفض العيش ، إلى غير ذلك من المعانى التى ذكرها صاحب القاموس .

(وَزُخْرُفًا) أى : نقوشًا وتزاويق ، أو ذهبًا ، وسيأتى فى الشرح ما قيل فى ذلك .

(لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : لمَّا هنا بمعنى إلَّا .

التفسير

٣٣ - (وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) :

الآية استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا عند الله ، ودناءة قدره عنده جل وعلا .

ومعنى الآية : ولولا أن يكون الناس أمة واحدة مجتمعة على الكفر ، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ، ومصاعد من فضة عليها يصعدون إلى طبقات قصورهم ، لأنهم يحبون الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ، وما ذلك إلَّا متاع الحياة الدنيا وهو مع كونه نعمة حقير عند الله فيمنحه الحقير عنده وهو الكافر ، وإن كان لا يستحق النعمة ، ولكننا لم نفعل ذلك حتى لا يكون الناس أمة واحدة مجتمعة على الكفر ، حيث يفتتن المؤمنون الفقراء بغناهم فيكفرون كما كفر هؤلاء ، لهذا جعلنا فى كل من الكفار والمؤمنين أغنياء وفقراء ، حتى يعلم الناس أن الغنى ليس دليلًا على رضوان الله وحبه ، وأن الفقر ليس دليلًا على سخط الله وكراهيته ، وحتى يكون الناس طبقات ليتخذ بعضهم بعضًا سُخْرِيًّا .

٣٤ - (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) :

أى : ولجعلنا لبيوت الكفار أبوابًا من فضة وسررا من فضة عليها ينامون أو يجلسون[1] ، لهوان متاع الدنيا عندنا فلا نعبأ بأن نعطيه من لا يستحقه ، لينالوا عذابهم فى الآخرة .

(١) راجع المفردات .

٣٥- (وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) :

قال الحسن : الزخرف : النقوش والتزاويق ، وقال ابن زيد : هو أثاث البيت وتجملاته وقال ابن عبّاس : الزخرف :الذهب ، وقال الراغب : الزخرف :الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب : زخرف ، وقال صاحب المختار : الزخرف : الذهب ، ثم يشبه به كل مُمَوَّه مزوق .

والمعنى : ولجعلنا لبيوت الكفار نقوشًا وزينة من ذهب وغيره ، وما كل ذلك من البيوت وزخارفها إلَّا متاع الحياة الدنيا ، والآخرة بما فيها من نعيم يعجز الواصفون عن وصفه ، خالصة للمتقين الذين اجتنبوا الكفر وسائر المعاصى .

وفى الآية تزهيد فى متاع الدنيا وزخارفها ، والحث على التقوى ، وقد أخرج الترمذى وصححه وابن ماجة عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانتِ الدنيا تُساوِى عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقَى منها كافرًا شَرْبَةَ ماءٍ » .

وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا سِجنُ المؤمِنِ وجنَّةُ الكافِرِ » .

وعن على- كرم الله وجهه- : الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب فى يد مجذوم .
وقال بعض الشعراء :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن ... إذًا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياءُ كرامة ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال آخر :

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منهـا فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن زِقٍّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثوابًا لمحسن ... ولا رضى الدنيا عقابًا لكافر

(وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾)

المفـردات :

(وَمَن يَعْشُ) – بضم الشين – أصله : يعشو مضارع عشا فجزم بحذف واوه[1] ، ومعناه ومن يَتَعَامَ ويعرض وليس بأعمى ، وقرىء « وَمَن يَعْشَ » (بفتح الشين) وماضيه عَشِيَ كرضى يرضى ، ومعناه يعمى لفقد بصره ، انظر الآلوسى .

(نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا) : نُتِحْ ونسبب له شيطانًا جزاءً على كفره .

(بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) : مشرق الشتاء ومشرق الصيف فإنهما متباعدان ، كما قال تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ »[2] وقال الفراءُ : أراد المشرق والمغرب ، فغلب اسم أحدهما كما يقال : القمران للشمس والقمر ، والعُمَران لأبى بكر وعمر .

(فَبِئْسَ الْقَرِينُ) : فبئس الصاحب .

التفسير

٣٦ – (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) :

المراد بالذكر هنا إما القرآن ، وإضافته إلى الرحمن ، للإيذان بنزوله رحمة للعالمين ،

---

(١) لأنه فعل الشرط .

(٢) سورة الرحمن ، الآية : ١٧

وإما مصدر ذكر ، أى : ومن يَتَعَامَ عن أن يذكر الرَّحْمٰن نُتِحْ ونسبب له شيطانًا يستولى عليه استيلاء القَيْضِ على البيض ، والقيض : قشر البيضة الخارجى .

ومعنى الآية : ومن يَتَعَامَ ويعرض عن القرآن الذى أنزله الرحمن ، أو عن أن يذكر الرَّحْمٰن وألوهيته ونعمه ، فانغمس فى كفره ومعاصيه ، نجعل له شيطانًا جزاءً له على كفره ، فهو قرين له فى الدنيا ، يمنعه من الواجب والحلال ، وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية ، فهو مصاحب له فى الدنيا لإغوائه ، وفى الآخرة حتى يدخل معه النار ، جزاءً له عن تعاميه أو عماه عن ذكر الرَّحْمٰن .

وقد جاء فى الخبر : « إن الكافر إذا خرج من قبره يشفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار ، وإن المؤمن يشفع بملك حتى يقضى الله بين خلقه » .

٣٧- (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) :

ذكر ضمير الكافر هنا بلفظ الجمع ، لأن (مَنْ) فى قوله : (وَمَن يَعْشُ) جَمْعٌ فى المعنى وإن كان مفردًا فى اللفظ .

والمعنى : وإن الشياطين ليصدون فى الدنيا قرناءهم من كفرة الإنس ، ويحسب هؤلاء الكفار أنفسهم أنهم مهتدون ، وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم.

٣٨- (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) :

أى : ويستمر هؤلاء الكفار معرضين عن ذكر الله ، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه قال الكافر للشيطان المقارن له : يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين[1] ، حتى لا أستمع إغواءك فبئس الصاحب أنت .

٣٩- (وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) :

هذه الآية حكاية ما يقال لهم من جهة الله تعالى .

---

(١) تقدم فى المفردات بيان المراد من المشرقين فارجع إليه .

والمعنى : ولن ينفعكم يوم القيامة تمنيكم بُعْدَ الشياطين عنكم فى الدنيا بُعْدَ المشرقين ، ـ لن ينفعكم ذلك ـ حين تبين لكم أنكم ظلمتم أنفسكم باتباعكم إياهم ، لأنكم فى العذاب مشتركون كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا .

وقال سيبويه : (إذ) فى قوله : (إذ ظَّلَمْتُمْ) حرف جيء به للتعليل وليست ظرفًا ، والمعنى عليه : ولن ينفعكم تمنيكم بُعْدَ الشياطين المقارنين لكم ـ لن ينفعكم ـ يوم القيامة فى أنكم وإياهم فى العذاب مشتركون ، لأنكم جميعًا ظلمتم أنفسكم فى الدنيا بالكفر والمعاصى. والكلام فى هذا الموضوع طويل ، وحسب القارىء ما تقدم .

(أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾)

المفـردات :

(فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ) : فَدُمْ على العمل بالقرآن الذى أُوحى إليك .

(إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : فإنك على طريق لاعوج فيه .

(وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) : وإن القرآن لشرف لك ولقومك .

التفسير

٤٠ـ (أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

كان رسول الله ﷺ يبالغ فى دعوة قومه إلى الحق ويبذل فى ذلك جهده ، وهم لا ينفكون عن شركهم ، بل يتوغلون فى غيهم وتعاميهم عمَّا يشاهدونه من شواهد النبوة ، ويَتَصامون ويتعامون عن بينات القرآن ، فهم كالصم العمى ، فنزلت هذه الآية لتسلية النبى ﷺ عن همه وضيقه لعدم استجابتهم .

ومعنى الآية : أفى قدرتك هداية هؤلاء المعاندين ، فأنت تسمع الصم الذين لا يسمعون أو تهدى العمى الذين لا يبصرون ومن كان فى بعد عن الطريق المستقيم ، إن ذلك ليس لك أيها النبى ، بل هو لله العلى القدير ، فهو الذى يرد السمع للصم الذين لا يسمعون ويرد البصر للعمى الذين لا يبصرون ، ويهدى أهْلَ الضلال إلى الصراط المستقيم ، فلا يضق صدرك بتصامهم وتعاميهم وضلالهم ، فقد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة على أتم وجه ، فما عليك إلَّا البلاغ المبين ، وقد فعلت .

٤١ ، ٤٢ـ (فَإِمَّا[1] نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ) :

أى : فإما أن نقبضك إلينا ـ كما تمنوا ـ قبل أن نُبَصِّرك عذابهم ، ونشفى بذلك صدرك وصدور المؤمنين فإنا لا محالة منهم منتقمون فى الدنيا والآخرة ، أو نتركك حيًّا نُبَصِّرك بالعذاب الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، بحيث لا مناص لهم من تنفيذ وعدنا ولا ملجأً يقيهم من قدرتنا وقهرنا .

وهكذا كان ، فإنه لم يفلت أحد من صناديدهم فى غزوة بدر وغيرها إلَّا من اعتصم بالإيمـــان .

---

(١) أصلها فإن ما فادغمت النون فى الميم ، ولفظ (ما) للتوكيد ، وهى تقتضى توكيد الفعل بعدها بنون التوكيد مثل لام القسم ، نحو : لأصومن ، وما يعطف على فعلها يؤكد مثله ، ولذا أكد نتوفى فى قوله تعالى : « أو نتوفينك » من الآية : ٧٧ من سورة غافر .

٤٣، ٤٤ - ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ :

خطاب للنبي ﷺ ولأُمته تبعًا له ، لأنه إمامهم ، وفيه تسلية له ﷺ على ما يرى من عناد قومه ، وتقوية لمـا هو عليه من الاستمساك بوحى ربه .

والمعنى : إذا كان أحد هذين الأمرين واقعًا بقريش المعاندين لك ، فدم على الاستمساك بالقرآن الذى أُوحى إليك من ربك ، لأنك على صراط مستقيم يوصلك إلى مرضاة الله تبارك وتعالى ، ولا تهتم بمعارضتهم ، واستمر على دعوتهم .

وإن القرآن لشرف لك ولقومك وللعرب جميعًا ، فقد نزل بلغتهم على نبى منهم ، وكل من آمن من الشعوب غير العربية تعلموا لغة العرب لكى يفهموا لغة القرآن والمرادَ منه أمرًا ونهيًا ، وجميع مافيه من الأنباء ، فشرفوا بذلك .

وكما أنه شرف للعرب فهو شرف لكل من آمن به ، فإنه دستور الحق الإلٰهى ، أخرج الطبرى عن ابن عباس قال : أقبل النبى ﷺ من سرية أو غزاة ، فدعا فاطمة فقال : « يا فاطمة اشترى نفسك من الله ، فإنى لا أُغنى عنك من الله شيئًا » وقال مثل ذلك لنسوته ، وقال مثل ذلك لعترته ، ثم قال نبى الله ﷺ : « ما بنو هاشم بأولى الناس بأُمتى ، إن أولى الناس بأُمتى المتقون ، ولا قريش بأولى الناس بأُمتى ، إن أولى الناس بأُمتى المتقون ، ولا الأنصار بأولى الناس بأُمتى ، إن أولى الناس بأُمتى المتقون ، ولا الموالى بأولى الناس بأُمتى ، إن أولى الناس بأُمتى المتقون ، إنما أنتم من رجل وامرأة[1] وأنتم كجِمام[2] الصاع ، ليس لأحد فضل على أحد إلَّا بالتقوى » .

وأخرج الطبرى أيضًا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لينتهينَّ أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم ، أو يكونون شرًّا عند الله من الجعْلان[3] التى تدفع النتن

---

(١) أى : من آدم وحواء .

(٢) الجمام : ما فوق المكيال من الطفاف .

(٣) الجعلان - بكسر الجيم - جمع جعل - بفتحها - وهو دويبة حقيرة .

بأنفها ، كلكم بنو آدم ، وآدم من تراب ، إن الله أذهب عنكم عَيْبَةَ الجاهلية[١] وفخرها بالآباء ، الناس مؤمن تقى وفاجر شقى » .

وفسر بعضهم الذِّكر بالتذكير ، أى : وإن القرآن لتذكير لك ولقومك .

ثم ختم الله الآيتين بقوله : (وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) أى : وسوف تسألون يوم القيامة عن القرآن الذى شرف الله به قومك ، أى : تُسألون عن القيام بحقوقه .

٤٥ - (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) :

كانت قريش تعبد الأوثان زاعمة أنهم يتقربون بعبادتها إلى الله ، وذلك ما حكاه الله بقوله : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٰٓ »[٢] . وقد كذبوا ، فأى صلة بين أحجار لا تضر ولا تنفع وبين الله الخالق الرازق ، حتى يتقربوا بعبادتها إليه سبحانه : « وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ »[٣] والله أقرب إلى عباده من حبل الوريد .

ولـمَّا دعاهم النبى ﷺ أن يتركوا عبادتها إلى عبادة الله تعالى وحده ، عجبوا من ذلك وقالوا ما حكاه الله عنهم فى سورة صٓ بقوله : « أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ »[٤] . ولما أفهمهم أن الله لا يرضى عن ذلك وأن الكتب السماوية مجمعة على تحريم عبادتها وتكفير من يعبدها قالوا : « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ »[٥] وقصدوا بالملة الآخرة النصرانية ، وأهلُها يتعبدون بالعهد القديم الشامل للتوراة ، والعهد الجديد الذى هو الإنجيل ، وقد كذبوا فالتوراة والإنجيل حرما عبادة غير الله تعالى ، وقد أمر موسى قومه بمحاربة الوثنيين فى الأرض المقدسة ، فامتنعوا لجبروت هؤلاء الوثنيين ، وقالوا لموسى: « فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »[٦] فحبسهم الله فى التيه

(١) أى : العيب الذى كان فى الجاهلية فى الأحساب ، بأن يحط المفتخر من افتخر عليه بالطعن فى حسبه .
(٢) سورة الزمر ، من الآية : ٣
(٣) سورة ص ، من الآية : ٦٥
(٤) الآية رقم : ٥
(٥) سورة ص - الآية رقم : ٧
(٦) سورة المائدة ، من الآية : ٢٤

أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، حتى نشأ جيل جديد أقوى إيمانًا وإقدامًا من آبائهم ، ففتح بهم أريحا وسائر البلاد المقدسة .

والأمر فى قوله تعالى : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا » موجه إلى الرسول ﷺ والمعنى على هذا : واسأل أيها الرسول أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا ، أو على جعل سؤال الأمم بمنزلة سؤال المرسلين ، قال الفراء : إنما يخبرون عن كتب الرسل ، فإذا سألهم النبى ﷺ ، فكأنه سأل المرسلين - عليهم السلام - وعلى الوجهين السؤال موجه إلى الأمم ، ولكنه بمنزلة سؤال الرسل ، لأنهم يحكون ما جاء فى كتبهم .

وروى ذلك عن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى وعطاء ، وهو إحدى روايتين عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال فى بعض القراءات : « واسأل من أرسلنا إليهم رسلنا قبلك » ، وروى أن فى قراءة عبد الله بن مسعود « واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا » والقراءتان المذكورتان شارحتان للمراد من هذه القراءة .

ومعنى الآية على هذا الوجه : واسأل أيها الرسول المرسلين قبلك فى شخص أممهم لتسمع قريشًا إجابتهم - اسألهم - أجعلنا فى كتبهم من غير الرحمن آلهة يعبدون ، فسيقولون : لا معبود فى كتبنا سواه ، فأنت لم تأت قومك حين دعوتهم إلى التوحيد - لم تأتهم - بأمر ابتدعته أنت ، بل هو أمر مجمع عليه من سائر المرسلين .

وأمر الرسول ﷺ بسؤالهم ، كناية عن أمر قريش بسؤالهم ، فهو من باب قولهم : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

ويصح أن يكون الأمر بالسؤال موجهًا إلى كل واحد من قريش وليس موجهًا إلى الرسول ﷺ وكأنه قيل : وليسأل كل واحد منكم أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا : (أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) ليعلموا الحقيقة حتى لا يقولوا : « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ » .

وعلى هذا يكون أسلوب القرآن مع قريش فى هذا الموضوع له طريقتان :

(إحداهما)أن يكون الخطاب موجهًا إلى جماعتهم ، وذلك فى قول الله تعالى : « فَاسْأَلُوٓا۟ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »[1] .

(وثانيهما) أن يكون موجهًا إلى كل واحد منهم ، وذلك فى قوله تعالى هنا : (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَآ) .

وفى كلا الوجهين من البلاغة مافيه ، فقد جعل سؤال أمم الرسل سؤالًا لنفس الرسل ، لأنهم سيجيبون من كتبهم ، والله تعالى هو الموفق .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(وَمَلَئِهِ) أى : وأشراف قومه ، وخصوا بالذكر ؛ لأنهم بطانته وجلساؤه ، وغيرهم تبع لهم ، وقد يطلق الملأ على الجماعة كما فى المختار .

(بِمَا عَهِدَ عِندَكَ) : بعهده عندك أننا إن آمنا كشف عنا العذاب .

(إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ) أى : فى المستقبل .

(ينكُثُونَ) : ينقضون العهد .

(١) سورة النحل من الآية : ٤٣

التفسير

٤٦ ، ٤٧ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ) :

لَمَّا أعلم الله النبي ﷺ أنه منتقم له من أعدائه ، وأقام لهم الحجة باستشهاد الأنبياء السابقين واتفاق الكل على التوحيد ، أكد ذلك بقصة موسى وفرعون ، وأنه دعاه وقومه إلى التوحيد ، فلما كذبوه أغرقهم الله - تعالى - ، كما فيه إبطال قولهم :(لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) لأن موسى لم يكن لديه من زخارف الدنيا شيء ومع ذلك بعثه الله إلى فرعون وهو ملك جبار ، وإلى قومه وهم أيضًا جبابرة - بعثه الله إليهم - ليدعوهم إلى التوحيد كما يدعو محمد قومه إليه ، فليس الفقر بمانع من إرسال أصحاب النفوس الزكية برسالات ربهم .

والمعنى : ولقد أرسلنا موسى - عليه السلام - مع أنه كان فقيرًا - أرسلناه - إلى ملك جبار هو فرعون ، وإلى قومه ، ولم تبلغوا أنتم يا أهل مكة شيئًا يذكر مما كانوا فيه من العظمة ، فقال لهم : إنى رسول رب العالمين إليكم ، فلما جاءهم بآياتنا التسع[1] المؤيدة له ، فاجئوا أول ما رأوها بالضحك استهزاء وسخرية ولم يتأملوا فيها ، يوهمون أتباعهم أنها سحر وتخييل ، وأنهم قادرون على إبطالها .

ولعلهم كانوا يضحكون من الآية الأولى قبل أن يروا آثارها ويعلموا جديتها ، فلما ابتلعت عصاه سحرهم لم يكن هناك سبب لضحكهم ، وبخاصة بعد أن غمرهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، واتضح لهم أنه حينما ينذرهم يقع إنذاره إن لم يسلموا ، ولذا كانوا يتضرعون إليه ليزيل عنهم ما نزل بهم ، كما سيجيء .

٤٨ - (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا) :

---

(١) وهى : عصاه ويده والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ونقص الزروع والأنفس والثمرات .

السابقة عليها ، وقيل : معناه أن الأُولى تقتضى علمًا والثانية تقتضى علمًا ، فبضم الثانية إلى الأُولى يزداد الوضوح ، ومعنى أُخوة الآية للأُخرى أنها قريبة منها فى المعنى ، ومشاكلة لها فيه .

وقد ختم الله الآية بقوله : (وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أى : وأخذناهم بالعذاب المتدرج المتكرر الذى تشتمل عليه تلك الآيات ، لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر ، ولم نعاجلهم بالعذاب المستأْصل .

٤٩ - (وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ) :

نادوا موسى فى الأَعراف باسمه ، كما حكاه الله تعالى فيها بقوله : « وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ »[1] ونادوه هنا بقولهم : (يَـٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ) ويحمل ذلك على أنهم نادوه مرة باسمه ، ونادوه مرة أُخرى بـ (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) أو أن فريقًا منهم ناداه بغير ما ناداه به فريق آخر .

وكان علم السحر هو العلم العظيم عندهم ، وكانوا يعظمون السحرة لذلك ، فنادوه بـ(يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) تعظيمًا له ، فكأَنهم قالوا : يأَيها العالم ، قال ابن عباس : (يَـٰٓأَيُّهَا السَّاحِرُ) يأَيها العالم ، وهذا هو رأى الجمهور .

وقيل : هو من قولهم : ساحَرتُه فسحرتُه ، أى : غلبته بالسحر ، كما يقال : خاصمته فخصمته ، أى : غلبته فى الخصومة ، وعلى هذا يكون معنى الآية : يأَيها الذى غلبنا بسحره ، وقيل : خاطبوه بما كانوا يخاطبونه من قبل ، وكان مقتضى طلبهم منه رفع الرِّجز عنهم بدعاء ربه أن لا يخاطبوه بذلك ، إلَّا أنهم سبق لسانهم إلى ماتعودوه فى خطابهم له ، وقيل غير ذلك ، والمعنى الأَول أرجح .

ومعنى الآية : يأَيُّهَا العالم : ادع لنا ربك بما أخبرتنا عن عهده إليك أننا إن آمنا يكشف عنا العذاب - ادعه - لينفذ وعده ؛ إننا لمهتدون مستقبلًا بعد زوال العذاب .

(١) الآية : ١٣٤ .

وقد فسر هنا اهتداؤهم بأنه يكون فى المستقبل ، بعد زوال العذاب ، ليطابق ما جاء فى سورة الأعراف : « لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » أى : إننا لمؤمنون لك مستقبلا على سبيل الاستمرار الذى يقتضيه التعبير بالاسم « إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ » .

٥٠ـ (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ) :

أى : فدعا موسى ربه فكشف العذاب عنهم ، فلما كشفه فاجئوا بنقض العهد الذى قطعوه على أنفسهم فلم يؤمنوا .

(وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(مِن تَحْتِى) : من تحت قصرى ، وسيأتى لذلك مزيد بيان .

(مَهِينٌ) : ضعيف حقير ، أو مبتذل ذليل ، فهو من المهانة بمعنى الذلة والحقارة ، والابتذال .

(وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) : ولا يكاد يفصح عمَّا فى فؤاده .

(أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ) : جمع سوار ، وهو كالحلقة من ذهب أو فضة تزين به الأيدى .

التفسير

٥١ـ (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) :

نداءُ فرعون فى قومه إن كان على الحقيقة فيكون قد جمع أشراف قومه ، ورفع صوته بما قاله ، والأشراف يبلغون نداءه إلى أتباعهم ، وإن كان على المجاز كان المعنى : نادى رجاله فى قومه بأمره ، وذلك كقولهم : هزم الأمير أعداءه ـ وهو فى قصره ـ يعنون أن جنوده هم الذين هزموا الأعداء ، ولكونه هو الآمر للجنود أسند الفعل إليه .

ومعنى قوله : « أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ » أن بيده تصريف أمورها ، ويعنى بمصر القطر كله ، من الإسكندرية إلى أسوان ـ كما فى البحر ـ والأنهار كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس ونهر طولون ، وهو نهر قديم كان قد اندرس ، فجدده أحمد بن طولون ، وكان قصره عند مبدأ هذه الخلجان ، فلذلك قال : (وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ) أى : من تحت قصرى وقال قتادة : كانت له جنان وبساتين بين يديه تجرى فيها الأنهار .

وفسر الأنهارَ بعضُهم بالأموال ، يريد أن أمواله تشبه الأنهار فى كثرتها ، وجريانُها من تحته كناية عن خروجها وانتشارها من تحت أمره ، أو من خزائنه التى وضعها فى قصره تحت سكنه .

ولا يخفى ما بين افتخار هذا اللعين بملك مصر ودعواه الربوبية من البعد البعيد .

ومعنى الآية : ونادى فرعون فى قومه أهل القطر المصرى متباهيًا ومفتخرًا : أليس لى ملك مصر بأقاليمها وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أتغفلون فلا تبصرون عظمتى وقوتى وضعف موسى وفقره ، فلا يغرنّكم ما يأتى به من السحر .

٥٢ ـ (أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) :

بل أنا فى عظمة ملكى خير من هذا الذى هو ضعيف حقير ولا يكاد يفصح عمّا فى فؤاده ، وكان موسى ـ عليه السلام ـ به عقدة فى لسانه منذ طفولته ، ولازمته إلى ما قبل النبوة ، فلمّا جاءته الرسالة طلب من ربه حلها بقوله : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى . يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى »[1] فاستجاب الله له وحلّ عقدته ، فعيره اللعين بالحبسة التى كانت فى لسانه أيام كان عنده ،

(١) سورة طه : ٢٧ ـ ٢٨

ولـمَّا حلت عقدته كان يناظر فرعون ويقيم عليه الحجة ، وكان أخوه هارون -عليهما السلام- يصدقه ويؤازره فى مناظرته ودعوته .

٥٣ - (فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَآئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) :

قال القرطبى : إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزى أهل الشرف ، ثم نقل عن مجاهد وله : كانوا إذا سوَّدوا رجلًا[1] سوروه بسوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته ، فقال فرعون : هلَّا ألقى رب موسى عليه أسورة من ذهب إن كان صادقًا .

والمعنى : هلَّا جعل رب موسى لموسى أسورة من ذهب ليستحق السيادة والشرف الذى يدعيه ، أو ضَمَّ إليه الملائكة التى يزعم أنها عند ربه ،حتى يتكثر بهم ويُصَرِّفهم على أمره ونهيه ، فيكون ذلك أهيب فى القلوب وأدعى إلى تصديقه ، يريد فرعون بهذا الكلام أن رسل الله ينبغى أن يكونوا كرسل الملوك ، تبدو عليهم مظاهر الرياسة ،وتكون معهم حاشية تقوى رسالتهم وتعظم شأنها ،ولم يعلم أن رسل الله إنما أُيدوا بالجنود السماوية ،وكل عاقل يعلم أن حفظ الله لموسى مع تفرده ووحدته - حِفْظَه - من فرعون مع كثرة أتباعه وقوتهم ، وأن إمداد موسى بالعصا واليد البيضاء من غير سوءٍ وغيرهما من المعجزات ، كان أبلغ من أن يكون له أسورة من ذهب أو ملائكة تكون له حاشية وأعوانًا دليلًا على صدقه .

وليس يلزم للرسل ما ذكره فرعون ، لأن الإعجاز كاف ، وقد كان من الجائز أن يُكذِّب موسى مع وجود الأسورة الذهبية وحضور الملائكة ، كما كذبه مع ظهور الآيات .

وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى بأن لله ملائكة ، وليس عن عقيدة ، لأن من لم يعرف خالقه لا يؤمن بأن له ملائكة .

---

(١) أى : جعلوه سيداً .

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾)

المفـردات :

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) أى : طلب منهم الخفة فى مطاوعته فأطاعوه ، ومعنى الخفة السرعة فى إجابته ومطاوعته ، كما يقال : هم خفاف إذا دُعُوا ، أو معناه : وجد عقولهم خفيفة ، أو استجهلهم ، يقال : استخفه : حمله على الجهل ، ومنه « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

(آسَفُونَا) : أغضبونا .

(وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ) : وعبرة لمن يكفر بعدهم .

التفسير

٥٤ ـ (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) :

فحمل فرعون قومه على الجهل لخفة عقولهم ، فطلب منهم الكفر بموسى ، فأطاعوه ولم يخالفوه لأنهم كانوا قومًا خارجين عن الحق .

والمراد من قومه جنوده ، لأن الانتقام كان منهم ، كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ :

٥٥ ـ (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى : فلمَّا أغضبَنَا فرعونُ وجنوده انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، لأنهم تبعوه وأيدوه فى كفره ، وخرجوا معه لإجبار بنى إسرائيل على العودة إلى خدمتهم .

٥٦ ـ (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ) :

أى : فجعلنا فرعون وقومه المغرقين متقدمين إلى النار ـ كما قاله ابن عباس وزيد ابن أسلم وقتادة ـ أو متقدمين إلى العقاب ، وجعلناهم عبرة للكفار المتأخرين عنهم ، يتعظون بما أصابهم ، أو مثلاً يضرب لمن كفر بعدهم .

* (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) : ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وسروراً .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) أى : شداد الخصومة مجبولون على اللجاج ، يقال : خصم الرجل من باب تعب : إذا أحكم الخصومة فهو خصيم .

(وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) أى : أمرًا عجيباً كالمثل فى غرابته حيث كان من غير أب .

(لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ) : علامة لها ، بنزوله من السماء يُعلم قرب وقوعها .

(فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) أى : فلا تشكُّن فى قيامها .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) : ظاهر العداوة لكم .

التفسير

٥٧ - (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) :

نزلت هذه الآية والتى بعدها بياناً لعناد قريش بالباطل والرد عليهم . وقد روى أن الضارب لهذا المثل عبد الله بن الزِّبَعْرى السلمى قبل إسلامه ، قال للنبى ﷺ وقد سمعه يقرأ قوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[1] ... الآية .

أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال -عليه السلام- هو لكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ، أليس النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول عنه : كان نبيًّا وعبدًا صالحاً من عباد الله؟ فإن كانَ فى النار فقد رضينا أن نكون وآلهتنا معه ، فعجبت قريش من مقالته وظنوا أن الرسول -عليه السلام- قد أُلزم الحجة . فضجوا وارتفعت أصواتهم فرحاً وبهجة ، وذلك معنى قوله تعالى : (إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) فأنزل سبحانه عندئذ قوله : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ[2] » ردا عليهم وتقبيحاً لقولهم .

وحاصل المعنى : ولما ضَرَبَ ابن الزِّبعرى عيسى بن مريم مثلا وحاجك أيها الرسول بعبادة النصارى إياه إذا قومك من ذلك المثل ولأجله ترتفع لهم جلبة ، ويعلو منهم ضجيج وضحك حيث زعموا أن ابن الزِّبعرى ألزمك الحجة . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ » الآية تأييدًا وإبطالًا لحجته ، لأن عيسى - عليه السلام - من الذين سَبَقَتْ لَهُم الحسْنى فأبعدوا عن النار ، والحجة إذا كانت تسير سير الأمثال شهرة قيل لها : مثل . وقرئ (يَصُدُّونَ) بضم الصاد ، من الصدود بمعنى الإعراض ، وروى ذلك عن علىّ - كرم الله وجهه - والمعنى عليها : إذا قومك يعرضون عن الحق بالجدال كحجة داحضة واهية .

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٩٨

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠١

٥٨ ـ (وَقَالُوٓاْ ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) :

حكاية لطرف من المثل المضروب ، أى : أآلهتنا خير أم عيسى؟يعنون أن الظاهر عندك أن عيسى خير من آلهتنا ، فحيث كان عيسى فى النار فلا بأس أن نكون مع آلهتنا فيها (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا) أى : ماضربوه لك ـ هذا المثل ـ إلا لأجل الجدل والخصام والغلبة فى القول لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ، وفى ذلك إبطال لباطلهم إجمالا . اكتفاءً بما فصل فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰٓ » ... الآية ،(بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) أى : لُدٌّ شداد الخصومة ، مجبولون على المكابرة وحب المغالبة بحق أو بباطل ولو تأمل ابن الزِّبعرى الآية ما اعترض عليها لأنه تعالى قال : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقل ومن تعبدون ؛ لأنه أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ومن عُبد مثله كعزير والملائكة .

٥٩ ـ (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) :

أى : ما عيسى بن مريم إلا عبد كسائر العبيد ، أنعمنا عليه بالنبوّة ، فهو رفيع المنزلة علىّ المكانة ، ولكنه لا يستحق أن يكون معبودًا لكونه عبدًا من عباده تعالى ، ولم يكن إلها أو ابن إله كما زعمت النصارى (وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) أى : أمرا عجيبا حقيقا بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة حيث كان آية يستدل بها على قدرة الله تعالى ، فإنه كان من غير أب ثم جعل الله له من المعجزات إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك مما لم يجعل لغيره فى زمنه مما حمل بعض الناس على الافتتان به ، والحق أنه بشر جعله الله دليلا على قدرة الله تعالى شأنه ، حيث وُجد من غير أب وهو بشر وكان مثلا لبنى إسرائيل يستدلون به على قدرة خالقه .

٦٠ ـ (وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) :

الآية تذييل لتحقيق أن مثل عيسى ـ عليه السلام ـ ليس ببدع من قدرة الله ، وأنه قادر على ابدع من ذلك وأبرع من خلق عيسى عليه ـ السلام ـ مع التنبيه على أن الملائكة أيضاً

لا تصح عبادتهم من دون الله ، لأنهم مخلوقون لله ، ولا فرق بين المخلوقين توالدًا وإبداعاً فى عدم الصلاح للمعبودية .

أى : لو نشاء ـ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر ـ لجعلنا بدلا منكم ملائكة مستقرين فى الأرض كما جعلناهم مستقرين فى السماء ، أو لجعلنا بدلكم ملائكة يخلف بعضهم بعضاً أو يخلفونكم فى عمارة الأرض .

٦١ ـ (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) : الضمير فى (إِنَّهُ) لعيسى ـ عليه السلام ـ لأن السياق فى ذكره ، أى : بنزوله يعلم قرب مجيئها ؛ لأنه شَرَطٌ من أشراطها ، واعتباره عِلْماً لها على المجاز بتسمية ما يعلم به عِلْماً ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسّدى وقتادة : إنه خروج عيسى ـ عليه السلام ـ وذلك من أعلام الساعة ؛ لأن الله ينزله قبل قيامها ، ويؤيد ذلك القراءة الأخرى وإنه لَعَلَمٌ للساعة ـ بفتحتين ـ أى : أمارة ودليل على وقوعها ، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ـ عليه السلام ـ قبل يوم القيامة إماماً عادلا وحكماً مقسطاً فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير .. » إلخ ، إلى غير ذلك من الأحاديث المذكورة فى كتب الصحاح [1] (فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) أى : فلا تشكُّن فى وقوعها ، وقال السدى : فلا تكذبون بها ولا تجادلون فيها فإنها كائنة لا محالة (وَاتَّبِعُونِ) أى : واتبعوا أيها المجادلون هداى أو شرعى أو رسولى . وقيل : هو قول رسول الله ﷺ على تقدير (قل) أى : قل لهم : اتبعون فى التوحيد وفيما أبلغكم به عن الله (هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) أى : هذا الذى أدعوكم إليه طريق قويم يوصل إلى الجنة .

٦٢ ـ (وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) :

أى : ولا يَحُولَنَّ الشيطان بينكم وبين اتباعى لأنه عدو لكم بيّن العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة ، ونزع عنه وعن زوجته لباسهما ، وعرّضكم للمحن والبلايا .

---

(١) وقيل : معناه : أنه بحدوثه من غير أب ، أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة .

(وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾)

المفـردات :

(وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ) أى : الآيات الواضحة كإحياء الموتى ونحوها من المعجزات ، وقيل : المراد بها هنا الإنجيل .

(قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ) أى : بالنبوّة ، أو الإنجيل ، أو بكل ما يؤدى إلى الإحسان .

(بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) : من الأمور الدينية ؛ لأن الأنبياء إنما يبينون أمور الدين لا أمور الدنيا .

(صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) أى : طريق لا عوج فيه ، موصل إلى جنات النعيم .

التفسير

٦٣ - (وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) :

استمرار فى رد شبه المجادلين ببيان أن عيسى - عليه السلام - لما جاء من عند ربه بالآيات الواضحات وهى - كما قال ابن عباس - إحياء الموتى وإبراء الأسقام والإخبار بكثير من الغيوب ، أو هى آيات الإنجيل ، أو بما تقتضيه الحكمة من الشرائع ، ولا مانع من إرادة الجميع - لمَّا جاءهم بذلك - قال : قد جئتكم من عند ربى بالحكمة (وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) من أمور الدين وما يتعلق بالتكليف مما اختلفتم فيه بعد تبديل التوراة . أما ما يختلفون فيه

من أُمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأَنبياء - عليهم السلام - كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ في قضية تأبير النخل : « أَنتم أَعلمُ بأُمورِ دنياكم » .

(فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ) أَى : فاتقوا الله من مخالفتى وافعلوا ما يقيكم من عذابى وأَطيعون فيما أَبلغكم عن الله - تعالى - وفيما أَدعوكم إليه من التوحيد وغيره .

وحاصل المعنى : أَن عيسى - عليه السلام - ليس معبودًا كما زعم المجادلون ؛ لأَنه لما جاءهم بالآيات الواضحة والمعجزات البينة قال : قد جئتكم بالإنجيل لأَدعوكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى امتثال أَوامره ، واجتناب نواهيه . ولأُبين لكم ما اختلفتم فيه من الأُمور الدينية ، فاتقوا الله واحذروا من مخالفته وأَطيعوه فيما دعاكم إليه من التوحيد وغيره مما تستقيم به أُموركم .

٦٤ - (إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) :

بيان لما أَمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد أَنه - سبحانه - لا شريك له ، والتعريف بالشرائع التى جاء بها الأَنبياء - عليهم السلام - وهذا المأْمور به طريق إلى الله لا عوج فيه ولا يضل سالكه ولا يشقى .

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ) أَى : تفرقوا . والأَحزاب جمع حزب ، وهى الفِرقةُ المتحزبة .

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ) : فهلاك للذين كفروا وأشركوا ، وويل : كلمة عذاب ، أو واد فى جهنم .

(أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً) أى : فجأة على غرة .

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أى : وهم غافلون عنها .

التفسير

٦٥ - (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) :

لما ذكر-تعالى- أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق أتبعه ذكر ضلال الفرق المتحزبة من اليهود والنصارى الذين بُعث إليهم ، وهم أمة دعوته ، فقد خالف بعضهم بعضاً فى شأنه . وقيل : المراد فرق النصارى الذين تفرقوا فى شأنه شيعا وأحزابا : من النسطورية والملكانية واليعقوبية ، وقد اختلفوا فيه . فقالت النسطورية : هو ابن إلٰه . وقالت اليعقوبية : هو الله . وقالت الملكانية : ثالث ثلاثة أحدهم الله - فسره الكلبى ومقاتل - وهم أمة دعوته (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ) أى : فهلاك للذين ظلموا حيث إنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والإشراك . ولم يقولوا عنه-عليه السلام-إنه عبد الله ورسوله (مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) وهو يوم القيامة ووصف يوم بأليم على المجاز ، أى : أليم عذابه .

٦٦ - (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

الاستفهام للإنكار ، وإلا بمعنى غير .

والمعنى : ما ينتظر الأحزاب الذين ذكروا فى الآية السابقة - ما ينتظرون - شيئاً غير إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها غير مترقبين لها ، مشتغلون بأمور الدنيا ، وذلك قوله تعالى : (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) وفى هذا تهكم بهم حيث جعل إتيان الساعة كالمنتظر الذى لابد من وقوعه ، ومع ذلك فهم عنها غافلون وبها غير مكترثين ، وقيل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا إتيان الساعة ، ويكون المراد على هذا الذين تحزبوا على رسول الله وكذبوه من المشركين .

وأُيِّد بما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « تقومُ الساعةُ والرجلانِ يحلبانِ النعجةَ ، والرجلانِ يطويان الثوبَ ، ثم قرأ -عليه الصلاة والسلام- : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

(ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ) أى : الأصدقاءُ يوم القيامة جمع خليل وهو الصديق الصميم الّذى تخللت المحبة قلبه .

(تُحْبَرُونَ) أى : تفرحون وتسرون سرورًا عظيماً يظهر أثره على وجوهكم حُسْناً ونضرة .

(بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ) الصحاف : جمع صحفة وهى إناء كالقصعة ، وقال الزمخشرى : قصعة مستطيلة وهى للطعام ، والأكواب للشراب ، جمع كوب وهى كوز لا عروة له . وقال قتادة : إنها الآنية المدورة الأفواه .

(ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا) : جعلها لكم ميراثاً .

التفسير

٦٧ - (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) : الآية تذكر حالا من أحوال القيامة ، وقد نزلت فى أُمية بن خلف الجمحى وعقبة بن أبى معيط كانا خليلين وكان عقبة يجالس النبى ﷺ فقالت قريش: قد صبأ عقبة بن أبى معيط فقال له أمية : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتفل فى وجهه ، ففعل عقبة ذلك ، فقتله النبى يوم بدر ، وقتل أُمية فى المعركة : حكاه النقاش .

والمعنى : المتحابون فى الأُمور الدنيوية لغير الله يعادى بعضهم بعضاً يوم القيامة لانقطاع علائق المحبة والتواد التى كانت تربط بينهم ، لظهور كونها أسباباً للعذاب ، قال ابن كثير : كل خلة وصداقة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة (إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) فإن صداقتهم لما كانت فى الله فإنها تبقى على حالها فى الدنيا ، وتزداد فى الآخرة قوة لما يراه كل منهم من آثارها من الثواب ورفع الدرجات .

٦٨ - (يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) :

حكاية لما ينادَى به المتقون المتحابون فى الله يوم القيامة تشريفاً لهم ، وتطييبا لقلوبهم ، وذلك بتقدير القول ، أى : فيقال لهم : يا عبادِ ، أو فأقول لهم : يا عباد ، بناءً على أن المنادِىَ هو الله تعالى .

والمعنى : لاخوف عليكم - أيها المتقون - فى هذا اليوم العصيب ، ولا أنتم تحزنون فيه على ما فاتكم فى الدنيا ؛ رَوَى المعتمر بْن سليمان عن أبيه : ينادى مناد فى العَرَصَات : يا عبادى لاخوف عليكم اليوم ، فيرفع أهل العَرَصَات رءوسهم على الرجاء ، فيقول المنادى :

٦٩ - (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ) :

فييأس أهل الأديان الباطلة وينكسون رءوسهم ، ويستبشر الذين آمنت قلوبهم وبواطنهم . وانقادت ظواهرهم وجوارحهم . وقوله - تعالى - : (وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ) يفيد أنَّ تلبسهم بالإيمان فى الماضى اتصل بزمان الإيمان فى الآخرة واستمر عليه ، والكلام على هذا أبلغ .

٧٠ - (ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) :

أى : يقال لهم : يا عبادى الذين آمنوا ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات أو أنتم وقرناؤكم من المؤمنين تسرون سرورًا عظيماً يظهر حَباره -بفتح الحاء وكسرها- أى : أثره على وجوهكم نضرة وحسنا ، كقوله -تعالى- : « تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ »[1] وقيل : تكرمون : قاله ابن عباس والكرامة فى المنزلة : الحُسْن .

٧١ - (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى : بعد دخول المؤمنين الجنة حيث فعلوا ما أمروا به : يطاف عليهم بأطعمة فى صحاف من ذهب وبأشربة فى أكواب من ذهب ، وجواز استعمالها خاص بأهل الجنة لزيادة أسباب النعيم لهم ، أما لأهل الدنيا فلا يجوز ، روى الأئمة من حديث أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا تَشْرَبُوا فى آنيةِ الذهبِ والفضةِ ولا تأكلوا فى صِحافِهما » وهذا يقتضى التحريم ولاخلاف فى ذلك كما قال القرطبى ، ولم تذكر فى الآية الأطعمة ولا الأشربة . حيث إنه لا معنى للإطافة بالصحاف والأكواب من غير أن يكون فيها شىء ، واستغنى بوصف الصحاف بقوله (مِن ذَهَبٍ) عن الإعادة مع الأكواب ، كما فى قوله تعالى : « وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ »[2] (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) تعميم ببيان أن فيها كل ما تشتهيه الأنفس من الطيبات وتلذ الأعين بمشاهدته من أنواع الجمال ، وذلك شامل لكل نعيم ولذة ، أما الإطافة عليهم بأوانى الذهب والفضة فهو بعض أنواع التنعيم والترفيه ، قال سعيد بن جبير : المراد من قوله : (وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) النظر إلى الله -عز وجل- كما فى الخبر : « أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم » (وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أى : باقون دائمون فى الجنة أبد الآبدين ، قال القرطبى : لأنها لو انقطعت لتبغضت ؛ فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ ، ومُسْتَعْقِب للحسرة عند فقده . والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشريف .

---

(١) سورة المطففين ، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة الأحزاب ، من الآية : ٣٥ .

٧٢ ــ (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : يقال لهم على سبيل الامتنان والتفضل : تلك الجنة التى كانت توصف لكم فى الدنيا جعلت لكم كالميراث (بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة ، حيث شبه ما استحقوه بسبب أعمالهم من الجنة ونعيمها الباقى لهم ـ شُبِّه ـ بِمَا يخلفه المرء لوارثه من الأملاك والأرزاق ، وأياً ما كان فدخول الجنة بسبب العمل لا يتم إلا بفضل الله ورحمته ـ عز وجل ـ والمراد بقوله ﷺ : «لَيس يُدْخِلُ أَحَدَكم الجنَّةَ عَملُه» أن إدخال العمل الجنة لا يكون على سبيل الاستقلال والسببية التامة ، فلا تعارض ، وقال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارًا ، فالكافر يرث نار المسلم ، والمسلم يرث جنة الكافر ، وذلك قوله : (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا ...) الآية .

٧٣ ــ (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ) :

أى : لكم أيها المؤمنون فى الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة بحسب الأنواع والأصناف لا بحسب الأفراد فقط ، قال ابن عباس : هى الثمار كلها رطبها ويابسها ، لا تأكلون إلا بعضها فى كل نوبة . وأما الباقى فعلى الأشجار دائماً بحيث لا ترى شجرة منها خلت من ثمرها لحظة ، فهى مزينة بالثمار أبدًا ، خلاف أشجار الدنيا التى تخلو منها كثيرًا ، وفى الحديث : « لا يَنزِعُ رجلٌ فى الجنةِ منْ ثمرِها إلا نبَتَ مكانَها مثلُها » .

(إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾)

المفـردات :

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ) أى : الكافرين ؛ لذكرهم فى مقابلة المؤمنين .

(لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ) أى : لا يخفف .

(وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) : آيسون من تخفيف العذاب ، من الإبلاس : وهو الحزن من شدة اليأس .

(لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) أى : لِيُمِتْنَا فنستريح ، من قضى عليه : أماته .

(إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) أى : مقيمون متلبثون ، من باب قتل .

(أَمْ أَبْرَمُوٓا أَمْرًا) أى : أحكموا كيدهم ، من الإبرام : وهو الإحكام والإتقان ، يقال : أبرم الحبل : أتقن فتله .

(سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) أى : الحديث الذى حدثوا به أنفسهم ، والذى تحدثوا به فيما بينهم ولم يطلع عليه أحد سواهم .

التفسير

٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ـ (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ . لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُواْ هُمُ الظَّـٰلِمِينَ) :

لما ذكر ـ سبحانه ـ أحوال أهل الجنة أتبعها ذكر أحوال أهل النار ؛ ليبين فضل المطيع على العاصى .

والمعنى : إن المجرمين الذين تمادوا فى الإجرام ، ورسخوا فيه ، وهم الكفار حسبما ينبىء عنه إيرادهم فى مقابلة المؤمنين : فى عذاب جهنم خالدون ما كثون فيها أبدا ، وعليه فلا تدل الآية على خلود عصاة المؤمنين فيه كما ذهب إليه المعتزلة والخوارج . حيث تبين أن المراد بالمجرمين الكافرون ، وخلودهم فى النار بسبب كفرهم أى : لا يخفف عنهم وهم فيه مبلِسُونَ ، أى : لا يخفف عنهم العذاب لحظة بل يستمر على شدته ، وقوة حدته (وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) أى : آيسون من كل أمل ورجاء فى أن يفتر عنهم العذاب أو يخفف (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ) بمعنى : وما ظلمناهم بعقابنا لهم ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم بسوءِ اختيارهم لما يؤدى إلى العذاب الخالد لهم وهو الشرك .

٧٧ ـ (وَنَادَوْاْ يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ) :

المعنى : لما اشتد بهم العذاب ، ويئسوا من فتوره ، ووقع عليهم من الجوع ما يعدل ما هم فيه من العذاب . كما فى بعض الآثار ، حينئذ نادوا مالكا وهو خازن جهنم ، خلقه الله لغضبه إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضاً ، نادوه فقالوا : (يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) أى : سل ربك أن يميتنا حتى نستريح مما نحن فيه ؛ أى : قال لهم مالك : (إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) فى العذاب أبدا لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره ، كما قال ـ تعالى ـ : « لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا »[1] قال بعض الأجلة : فى الجواب استهزاء بهم ؛ لأنه أقام المكث مقام الخلود .

---

(١) سورة فاطر من الآية ٣٦ .

٧٨ - (لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) :

يحتمل أن يكون هذا من تمام قول مالك لأهل النار . أى : إنكم ماكثون فى النار لأننا جئناكم فى الدنيا بالحق فلم تقبلوا ، والمقصود من قوله : (جِئْنَاكُمْ) الملائكة لأنهم رسل الله وهو واحد منهم . ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم . أى : جئناكم فى الدنيا بالحق بإرسال الرسل وإنزال الكتب فأعرضتم وكذبتم ، وهو خطاب توبيخ وتقريع لهم من جهته تعالى ، مقررًا لجواب مالك لهم بقوله :(إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) ومُبَيِّنا لسبب مكثهم ، ولا مانع من خطابه ـ سبحانه ـ للكفرة تقريعاً (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) أى : ولكن أكثركم للحق ـ أىَّ حَق كَانَ ـ كارهون لا تقبلونه وتنفرون منه ؛ وفسر الحق بذلك دون تفسيره بالحق المعهود وهو التوحيد أو القرآن ؛ لأنهم كانوا كارهين لكل حق مشمئزين منه سواء أكان الخطاب لقريش أم لأهل النار . وقد يقال :المراد بالحقِّ الحقُّ المعهود ، وعُبِّر بالأكثر ؛ لأن من الأتباع من يكفر تقليدًا .

٧٩ - (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) :

قال مقاتل : نزلت فى تدبير المشركين المكر بالنبى ﷺ فى دار الندوة حين استَقَرَّ أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله ﷺ فتضعف المطالبة بدمه ، ولفظ (أَمْ) معناه بل والهمزة الإنكارية ، وبل للإضراب الانتقالى من توبيخ أهل النار إلى حكاية مؤامرة قريش على الرسول . المعنى : بل أأحكم مشركو مكة بالفعل أمرًا من كيدهم برسول الله ﷺ فى دار الندوة حيث تآمروا على قتله ، كلَّا لم يحكموا أمرهم فلذا نجا منهم ، فإنا مُبْرِمُون ومُحْكِمون رَدَّ كيدهم ، وحمايته منهم ، فلذا أخرجناه من بينهم وهم له راصدون ، ولم ينفعهم كيدهم ولم يغن عنهم شيئاً كقوله تعالى : « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ »[1] .

وقال قتادة : أم أجمعوا على التكذيب ، فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث .

---

(١) سورة الطور الآية ٤٢ .

وكانوا يتناجون فى أنديتهم ، ويتشاورون فى أمره ﷺ ويتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل يسلكونها ، فكادهم الله وردّ وَبَال ذلك عليهم حيث قال ــ سبحانه ــ :

٨٠ ــ (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) :

أى : بل أيظن هؤلاء المشركون أنالا نسمع سرهم فى أنفسهم ، ولا نسمع نجواهُم مما يتحدثون به فيما بينهم على سبيل التناجى ولم يطلع عليه أحد سواهم (بَلَىٰ) نسمعها ونطلع عليها (وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) وهم الحفظة الذين يحفظون عليهم أعمالهم ويلازمونهم حيثما كانوا . فهم عندهم دائماً يكتبونها وكل ما صدر عنهم من أقوال وأعمال صغارها وكبارها .

(قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾)

المفــردات :

(فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى: المنقادين ، وهو جمع عابد ، وَيجمع عابد أيضاً على عُبّاد وعبدة .

(سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى : تنزيهاً له وتقديساً . نزّه الله نفسه وأمر النبى بالتنزيه عما لا يليق به .

(عَمَّا يَصِفُونَ) أى : عما يقولون من الكذب .

التفسير

٨١ ــ (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) :

رد لباطل المشركين بتنزيهه ــ جل شأنه ــ عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد .

والمعنى : قل-أيها النبي-للمشركين تحقيقاً للحق ، وتنبيهاً لهم على أن الدافع لك على مخالفتهم فى عبادة الملائكة ليس لغضبك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم ، وإنما هو لجزمك باستحالة ما نسبوه إليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله . قل لهم : (إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ) أى - : إن صح ذلك وثبت ببرهان واضح تأتون به ، وحجة صحيحة تدلون بها (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى : أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرْض ، والمراد نفى الولد ، وذلك لأنه علق العبادة على كينونة الولد لله ، وهى محال فى نفسها فكان المعلق عليها محالا مثلها . ونظيره قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [1] » .

وقال ابن الأعرابى[2] : (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى : الآنفين من أن يكون له - سبحانه - ولد ، وقال ابن عباس والسدى : المعنى ما كان للرحمن ولد ، بجعل (إن) بمعنى (ما) ويكون الكلام على هذا تامًّا . ثم يبتدىء (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى : الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له ، والوقف على العابدين تام .

٨٢ - (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تنزيها وتقديسا لله - تعالى - عما يصفونه به من كونه - سبحانه - له ولد ، وتعاليا عن كل ما يقتضى الحدوث ؛ لأنه واحد أحد فرد صمد .

وفى إضافة رب إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات تحت ملكوته وربوبيته عز وجل ، فكيف يتصور أن يكون شىء منها جزءا منه ، وفى إعادة الاسم الجليل تفخيم لشأن العرش .

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾)

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٢٢ .

(٢) وذلك من باب عَبِدَ من باب طرب أى غضب وأنف
ورجح هذا البخارى

المفـــردات :

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ) أى: فاتركهم يدخلوا فى باطلهم ، يقال : خاض فى الأمر : دخل فيه .

(وَيَلْعَبُواْ) بكل ما يريدون ، واللُّعْبَةُ وزن غرفة : ما يُلعَب به ، والفعل من باب فرح .

(حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) وهو يوم القيامة الذى وعدوه .

التفسير

٨٣ - (فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) :

هذه الآية أُخرجت مخرج التهديد لكفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة .

والمعنى : فاتركهم - أيها النبى - حيث لم يذعنوا للحق - اتركهم - يدخلوا فى باطلهم وضلالهم ويلعبوا فى دنياهم (حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) وهو يوم القيامة الذى وعدوه ، وسوف يلاقون فيه مصيرهم حيث تحل بهم الشدائد والأهوال التى هى فوق الاحتمال ، وقال عكرمة وجماعة : إنه يوم بدر وقد وُعِدُوا الهلاك فيه .

(وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾)

المفـــردات :

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) أى : الحكيم فى تدبير خلقه ، العليم بمصالحهم ما كان وما يكون .

(وَتَبَارَكَ) من : البركة واليمن ، أى : هو سبحانه المتصف بهما .

(إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهو التوحيد .

(فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) أى : فكيف ينقلبون وينصرفون عن عبادته تعالى ؟! مِنْ أَفَكَ يأفِك إفْكا ، بمعنى كذب ... إلخ .

(وَقِيلِهِ يَارَبِّ) : القيل والقول والقال والمقال واحد .

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ) أى : فأعرض عنهم .

(وَقُلْ سَلَامٌ) أى : تَسَلُّم منكم ومتاركة ، وليس المراد أمره ﷺ بإلقاء السلام عليهم .

التفسير

٨٤ - (وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) :

هذا تكذيب للمشركين فى أن لله شريكاً وولدا ، وتقرير لوحدانيته - تعالى - والمعنى : أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة فى السماء وفى الأرض ؛ فكل من فيهما خاضعون له أذلاء بين يديه . وفى ذلك نفى للآلهة السماوية والآلهة الأرضية ، وإثبات الألوهية لله وحده مختصة به لا تتعدّاه - عز وجل - إلى غيره .

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) أى : الحكيم فى تدبير شئون خلقه العليم بأحوالهم ، ما كان منها وما يكون ، وهذا بيان لاختصاص الألوهية به - تعالى - ونفيها عن سواه لأن من لا يتصف بكمال الحكمة والعلم لا يستحق الألوهية .

٨٥ - (وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

استمرار فى تقرير وحدانيته ـ تعالى ـ وأنه لا شريك له فى شئون الكون خَلقاً وملكاً وتدبيرا وتصرفا .

والمعنى : تعظَّم وتَعَالَىَ الذى له وحده كمال التصرف فى السموات والأرض وفيما بينهما من مخلوقات الجوِّ المشاهدة وغيرها (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) أى : وقت قيامها ويراد بها يوم القيامة ، أى : وعنده العلم بالزمان الذى تقوم فيه القيامة .

وفى تقديم الخبر فى قوله ـ سبحانه ـ : (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) إشارة إلى استئثاره ـ عز وجل ـ بعلم ذلك (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء على ما اقترفتم من آثام ، والالتفات إلى الخطاب للتهديد .

٨٦ـ (وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

بيان لعجز آلهتهم وإشادة بمكانة التوحيد .

والمعنى : ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم يوم القيامة ونصراؤهم عند الشدائد والأهوال (إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهو التوحيد ؛ فإن هؤلاء هم الذين يشفعون عند الله فى المؤمنين المقصرين ، وقال ابن عباس : أى : إلا من شهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيشفعون للمؤمنين إذا أذن لهم ، ويراد بهم عيسى وعزير والملائكة وأضرابهم ـ عليهم السلام ـ فإنهم يشهدون بالحق والتوحيد لله (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) حقيقة ما شهدوا به واعتقدوه ، والآية تفيد أن الشهادة على غير علم بالمشهود به لا يعوَّل عليها ، وقال مجاهد وغيره : المراد بمن شهد بالحق المشفوع فيهم كأنه قيل : ولا يملك هؤلاء الملائكة وأضرابهم الشفاعة فى أحد إلا فيمن وحد عن إيقان وإخلاص .

وإفراد الضمير فى قوله : (شَهِدَ بِالْحَقِّ) وجمعه فى قوله : (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) باعتبار لفظ مَنْ ومعناها .

٨٧-(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) :

أى : ولئن سألت العابدين والمعبودين عمن خلقهم ليقولن : خلقنا الله لا الأصنام ولا الملائكة لتعذر المكابرة فى ذلك مع فرط ظهوره (فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) :

أى : فكيف يُصرفون عن عبادته ويصرفون عنها إلى عبادة غيره ، ويشركونه معه-عز وجل- مع إقرارهم بأنه- تعالى- خالقهم جميعاً ،أو مع علمهم بإقرار آلهتهم بذلك والمراد التعجب من إشراكهم مع رجاء شفاعتهم لهم وهم يعترفون بأن الله خالقهم ، وقيل المعنى : ولئن سألت الملائكة وعيسى (مَنْ خَلَقَهُمْ) لقالوا : الله ، ومعنى (فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) أى : فكيف يؤفك هؤلاء المشركون ويصرفون وينقلبون عن الحق فى ادعائهم إياهم آلهة .

٨٨- (وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) :

الكلام خارج مخرج التحزن والتحسر والتشكى من عدم إيمان أولئك الذين أشركوا بالله ، أى : وعند الله علم الساعة ، وعلم قول الرسول -عليه السلام- :(يَارَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ . .) الآية بعطف قيله على الساعة من قوله- تعالى- : (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) وقيل :إن الواو للقسم ، وقوله تعالى : (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) جوابه ، وفى الإقسام به من رفع شأنه- عليه السلام- وتفخيم دعائه والتجائه إليه - تعالى - ما لا يخفى .

وخلاصة المعنى : أن رسول الله ﷺ التجأ إلى ربه يشكو قومه الذين كذبوه ، وعبدوا غير الله . بما يشير إلى التحسر والتحزن والتشكّى من عدم إيمانهم ، وأشار- عليه السلام - إليهم بهؤلاء ، دون قومى ، تحقيراً لهم ، وبراءة منهم لسوء حالهم .

والمراد من الإخبار بعلمه أنهم لا يؤمنون وعيده إياهم حيث تمسكوا بشركهم ، وأبوا أن ينقادوا لدعوة الإيمان .

٨٩- (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

أى : فأعرض -أيها النبى -عن هؤلاء الكفار من مشركى مكة ، ولا تطمع فى إيمانهم لشدة كفرهم وعنادهم ، وقل لهم : أمرى تسلُّم منكم ومتاركة لكم ، فليس ذلك أمرا بتحيتهم والسلام عليهم ،وإنما هو أمر بالتباعد عنهم ، والتبرؤ منهم . . .

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أى : فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم بما يلاقونه من جزاءٍ عادل ينزل بهم حين يسأل المرء عما قدمت يداه ،وهو وعيد وتهديد للمشركين ، وتسلية للرسول ﷺ .

« سورة الدخان »

هذه السورة مكية وآياتها تسع وخمسون ، وسميت بسورة الدخان لقوله ـ تعالى ـ فيها : (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) وهى تناسب ما قبلها فى أنه ـ عز وجل ـ ختم ما قبلُ بالوعيد والتهديد حيث قال تعالى : (وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) وافتتح هذه بالحديث عن القرآن الكريم ثم عقب بالإنذار الشديد لهؤلاء المشركين بقوله تعالى : (إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) وقوله ـ سبحانه ـ : (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) كما ذكر ـ تعالى ـ هناك قول الرسول ﷺ : (يَارَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) وهنا نظيره فيما حكى عن موسى ـ عليه السلام ـ (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) إلى غير ذلك من المناسبات بين السورتين .

أهم أهداف السورة :

تحدثت عن نزول القرآن الكريم فى ليلة مباركة وهى ليلة القدر ، وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التى تُفصل فيها أُمور الخَلق وتقدر ، وقد اختارها الله لإنزال آيات التنزيل هُدًى لعباده ورحمة بهم وذكرت آيات التوحيد ، والآيات التى تكشف عن أحوال الكفار ، وعرضت حديث موسى وبنى إسرائيل وفرعون . وكشفت عما حل بقوم فرعون وبينت عاقبة أمرهم وردت على منكرى البعث من مشركى قريش . وأشارت إلى أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله من الأُمم الطاغية التى تعرضت لانتقام الله وإهلاكه جريا على سنته ـ سبحانه ـ مع الطغاة المجرمين ، ثم أكدت أن يوم القيامة هو موعد الفرق بين جميع الخلائق ، وختمت السورة بتسجيل ذل الكفار بالعقوبة وبيان ما يحيق بهم . وعزِّ المؤمنين فى الجنة بتفصيل ما ينالونه من نعمة وكرم ، ومنزلة الرسول ﷺ وشرفه بتيسير القرآن على لسانه فى قوله ـ تعالى ـ : (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ) كما بدأت بالحديث عنه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ) أى : والقرآن الواضح للمتدبرين ، من أبان : بمعنى اتضح

(فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ) : كثيرة البركة ، هى ليلة القدر على الأصح .

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا) أى : يفصل ويبين كل أمر ذى حكمة وهو ما قضاه الله من أحوال العباد وحاجاتهم فى هذه الليلة المباركة ، ومن أعظمها نزول القرآن .

(إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) أى : تريدون اليقين وتطلبونه . كما يقال : فلانٌ يُتْهِمُ أى : يريد تِهَامة .

(بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ) أى : فى تردد ولعب فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار بأن الله خالقهم .

التفسير

١ - (حمٓ) سبق الحديث مفصلا عن حروف المعجم التى افتتحت بها أوائل بعض السور ولا سيما أول سورة البقرة .

٢ ، ٦ - (وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ. إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

أقسم الله سبحانه بالقرآن العظيم تشريفا له وتنويها بعلو قدره حيث قال : (وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ) وأشار جواب هذا القسم إلى أن إنزاله فى ليلة ذات فضل وبركة لما ينزل الله على عباده فيها من البركات والخيرات بنزوله المستتبع للفوائد الدينية والدنيوية بأجمعها حيث قال سبحانه : (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ) وهى ليلة القدر على الأصح بدليل قوله تعالى : « إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[1] وقوله : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ »[2] ويراد من إنزاله فيها أنه ابتدئ إنزاله كما قيل ، أو أنزل جملة فيها إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به جبريل - عليه السلام - على الرسول منجما فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الأسباب ، وقيل : كان ينزل منه فى كل ليلة من ليالى القدر إلى سماء الدنيا ما ينزل فى سائر السنة .

وفى تعيين هذه الليلة من شهر رمضان أقوال كثيرة ، أشهرها : أنه أنزل فى إحدى ليالى الوتر من العشر الأخير منه ، ومنهم من قال : إنها ليلة السابع والعشرين منه ، وهو المشهور بين الناس . ومن العلماء من قال : إن الليلة المباركة هى ليلة النصف من شعبان ، وقال القرطبى نقلا عن الزمخشرى : وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها ، وفى البحر قال الحافظ أبو بكر ابن العربى : لا يصح فيها شئ ولا نسخ الآجال فيها ، وعلق الآلوسى على ذلك بأنه لا يخلو من مجازفة ، والله أعلم

(إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) : استئناف مبين لما يقتضى الإنزال كأنه قال : إنا أنزلناه لأن من شأننا ألا نترك الناس دون إنذار وتحذير من العذاب رحمة بهم لنلزمهم الحجة

(١) سورة القدر ، الآية الأولى .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٥

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) : استئناف كالذى قبله ، فإن كونها مفرق الأمور المحكمة يستدعى أن ينزل فيها القرآن الذى هو من عظائمها ، ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل فيها كل أمر حكيم بمعنى محكم أو منزل على ما تقتضيه الحكمة من بيان أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم ، فهى مبتدئة من هذه الليلة إلى الليلة الأخرى من السنة القابلة . وهذا الأمر لا يغيّر ولا يبدل بعد إبرازه للملائكة ، بخلافه قبله وهو فى اللوح المحفوظ ، فإن الله يمحو منه ما يشاء ويثبت ، قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا إلى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال : كنت عند الحسن فقال له رجل : يا أبا سعيد ليلة القدر فى كل رمضان هى ؟ قال : إى والله إنها لفى كل رمضان ، وإنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضى الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها ، وروى هذا التعميم عن غير واحد من السلف ، قال ابن عيسى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده (أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا) منصوب على الاختصاص ، أى : أعنى بهذا الأمر أمرا عظيما حاصلا من عندنا . والمراد بالعندية أنه أمر على وفق الحكمة والتدبير ، فهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بقوله ــ سبحانه ــ : (كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) .

وحاصل المعنى : أن جميع ما نقدره فى تلك الليلة ، وما نوحى به إلى الملائكة من شئون العباد أمر من جهتنا على مقتضى حكمتنا وتدبيرنا . فزاد بذلك فخامة وجلالا (إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) بدل انتقال من (إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) لتفصيله أى : إنا أنزلنا القرآن ؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل إفاضة رحمتنا عليهم ، أو لاقتضاء رحمتنا بهم التى سبقت إرسالهم بالشرائع ، ووضع الرب موضع الضمير فقيل : رحمة من ربك. ولم يقل مِنّا للإيذان بأن الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين وإضافته إلى ضميره ــ عليه الصلاة والسلام ــ لتشريفه .

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أى : إنه هو السميع لكل مسموع من أقوال العباد ، العليم بكل معلوم من أحوالهم وذلك تحقيق لربوبيته وأنها لا تكون إلا لمن هذه أوصافه

وحاصل المعنى للآيات السابقة : أنه تعالى أنزل القرآن على رسوله ﷺ فى ليلة القدر المباركة التى يُبيّن فيها للملائكة كل أمر حكيم من الأُمور المتعلقة بعباده ، التى تصدر من جهته - تعالى - وفق الحكمة والتدبير ، ومن أجلِّها وأعظمها القرآن ، وقد أنزله الله على رسوله ﷺ رحمة بالعباد جريا على سنته فى خلقه حيث أرسل الرسل بالكتب لإفاضة رحمته سبحانه بهم ، وهو يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم .

٧ - (رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) :

أى : إن كنتم موقنين فى اعترافكم بأَنه تعالى رب السموات والأَرض وما بينهما وخالقهن ، إذا سئلتم من خلقهن يلزمكم الاعتراف بأَن من حقه إرسال الرسل وإنزال الكتب ؛ لإرشاد الخلق بأَنه لا معبود سواه ، ولذا عقبه بقوله :

٨ - (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ) :

الآية مستأْنفة مقررة لما قبلها ، أى : لا رب غيره ، ولا معبود سواه يحيى الأَموات ويميت الأَحياء وهو خالقكم وخالق من تقدم من آبائكم . وإليه المرجع والمآب ، فإذا كان هذا شأْنه فما لكم أيها المشركون لا تتقون تكذيب محمد ﷺ حتى لا ينزل بكم العذاب الأَليم حيث تفقدون الولى والنصير .

٩ - (بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ) :

إضراب إبطالى أبطل به إيقانهم المزعوم فى قوله تعالى : (إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) لعدم جريانهم على مقتضاه ، أى : ماقالوا ذلك عن جد وإذعان ، وإنما قالوه تقليدا لآبائهم ، وهم فى شك مما ذكر من شئونه تعالى ، لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة ، وقيل : يلعبون . يضيفون إلى النبى ﷺ الافتراء استهزاءً . شأْنهم شأْن الصبى الذى يلعب فيفعل مالايدرى عاقبته . والالتفات عن خطابهم إلى الغيبة إعراض عنهم لفرط عنادهم وعدم التفاتهم .

(فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾)

المفـــردات :

(فَارْتَقِبْ) أى : فانتظر أيها النبى .

(بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) أى : واضح بيّن ، ويراد به الغبار المتصاعد بسبب الجَدْب .

(يَغْشَى النَّاسَ) أى : يشملهم ويحيط بهم .

(أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ) أى : من أين لهم الاتعاظ بشىء مما شاهدوه ، والذكرى والذكر بمعنى واحد .

(ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) : أعرضوا مكذبين .

(يَوْمَ نَبْطِشُ) أى : نعاقب بشدة ، من بَطَش يبطِش -بكسر الطاء وضمها- إذا أخذه بعنف وقوة .

التفسير

١٠ ، ١١ - (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

تسلية للرسول ﷺ وتهديد ووعيد للمشركين . والفاء فى قوله تعالى : (فَارْتَقِبْ) لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ماقبلها. فإن كونهم فى شك ولعب مما جاءهم به رسولهم

يقتضى ترقب عذابهم ، والمعنى : فانتظر أيها النبي عذابهم يوم تأتى السماءُ بجدب ومجاعة ، فإن الجائع جدا يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ، وهى ظلمة تعرض للبصر لضعفه ، فيتوهم ذلك ،فهو كناية عنه ، وفسر أبو عبيدة الدخان به ، وبعض العرب تسمى الشر الغالب دخانا ، ووجه ذلك أن الدخان مما يتأذى منه فأُطلق على كل مؤذ .

وسبب نزول الآية : أن قريشا لما استعصت على الرسول ﷺ وأبى أكثرهم الإسلام . دعا عليهم فقال : «اللهم أعِنِى عليهم بسبع كسبع يوسف » . فأصابهم قحط شديد وبلاءٌ حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام . وكنى عنه بالدخان لِمَا تقدم بيانه ، وكلما اشتد الجدب اشتد الدخان تكاثفًا . فكان الرجل يحدث الرجل فيسمعه ولايراه وذلك قوله -سبحانه- : (يَغْشَى النَّاسَ) أى : يضمهم ويحيط بهم . وقيل : هو يوم فتح مكة كما فى البحر عن عبد الرحمن الأعرج أنه قال :(يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ) هو يوم فتح مكة ، ويُروى عن أبى هريرة أنه قال : كان يوم فتح مكة دخان وهو قول الله تعالى :(يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) وقال الآلوسى :يحسن على هذا القول أن يكون كناية عما حلَّ بأهل مكة فى ذلك اليوم من الخوف والذل ونحوهما ،وقيل :إنه دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة ، وهو شَرَط من أشراطها. قاله علىّ -كرم الله وجهه- وابن عمر وابن عباس وغيرهم (هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : يقول الله لهم ذلك تهويلا وتقريعا . وقيل : إن الناس هم القائلون لذلك حينما يرون الدخان ، أى : أنه عذاب شديد الألم بالغ الأثر . والإشارة بهذا للدلالة على قرب الوقوع وتحققه .

١٢ - (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) :

الآية - كما صرح به غير واحد من المفسرين - وعد منهم بالإيمان إن كشف عنهم -جل وعلا-العذاب ، وكأنهم قالوا : ربنا إن كشفت عنا العذاب آمنا. ولكنهم عدلوا عنه إلى مافى النظم الكريم حيث قالوا : (إِنَّا مُؤْمِنُونَ) إظهارا لمزيد الرغبة فى الإيمان . كما فى بعض الروايات أنه لما اشتد القحط بقريش مشى أبو سفيان ومعه نفر إلى رسول الله ﷺ

يناشدونه الله تعالى والرحم، وواعدوه إن دعا لهم وزال عنهم ما بهم أن يؤمنوا، وذلك قولهم : (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . . .) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود- رضى الله عنهما – وبه أخذ مجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج .

١٣ ، ١٤- (أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) :

. رد لكلامهم بنفى صدقهم فى الوعد بالإيمان . حيث إن غرضهم هو كشف العذاب عنهم والخلاص منه فحسب ،أى : من أين لهم التذكر والاتعاظ والوفاء بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم (وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) أى : والحال أنهم شاهدوا من دواعى التذكر ، وموجبات الاتعاظ ماهو أعظم وأدخل فى الادكار من كشف العذاب ، حيث جاءهم رسول بَيِّن الرسالة مؤيد بالآيات الواضحة . والمعجزات القاهرة التى تخرلها صم الجبال ، لبيان مناهج الحق وشواهد التوحيد، ومع هذا لم يؤمنوا به بل كذبوه (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) أى : ثم انصرفوا عن ذلك الرسول المؤيد من الله وظلوا كافرين بعد ماشاهدوا منه ماشاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه ، والتعبير بثم للاستبعاد أو التراخى الرُّتبى ، ولم يكفهم التولى عنه ، والإعراض عن اتباعه ، بل بهتوه (وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف ، كما قالوا عنه : مجنون لايعى مايقول ، فهل يتوقع من قوم هذه طبيعتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ؟! .

١٥ ، ١٦- (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) :

والمعنى : أننا نكشف عنكم العذاب كشفا قليلا ،أو زمانا قليلا ، لأنكم عائدون إلى ماكنتم عليه من العتو والثبات على الكفر ، وقد تحقق كلاهما حيث كشف الله عنهم العذاب بدعاء النبى ﷺ ، فما لبثوا أن عادوا إلى ماكانوا عليه من الكفر، ومن قال إن الدخان يكون قبل يوم القيامة وهو شَرَط من أشراطها قال بإمكان الكشف وعدم انقطاع التكليف .

(يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ) أى : واذكر يوم نبطش بالكفار البطشة الكبرى حيث يؤخذون بقوة وشدة . أخرج ابن جرير وعبد بن حميد بسند صحيح عن عكرمة قال : قال ابن عباس : البطشة الكبرى : يوم بدر لما وقع فيه من قَتْلٍ وأَسْر وتَشْريد لمشركى قريش ، واختار ابن كثير أنها يوم القيامة وكونها يراد منها يوم القيامة هو الأنسب . قال الرازى : القول الثانى أصح ؛ لأن يوم بدر لايبلغ هذا المبلغ الذى يوصف به هذا اليوم العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل فيه . ولمّا وصفت البطشة بأنها الكبرى وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق ، ولاشك أنها لاتكون إلا يوم القيامة (إِنَّا مُنتَقِمُونَ) أى : يومئذ ننتقم من هؤلاء المشركين انتقاماً قويا شديدا يظهر أثره فيهم .

(* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾)

المفـــردات :

(فَتَنَّا) : اختبرنا وامتحنا .

(أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ اللهِ) : أن أسلموا لى بنى إسرائيل . أو أجيبوا دعوتى وصـــدقوا رسالتى .

(وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى اللهِ) : ألَّا تتجبروا وتتكبروا على الله بالاستهانة بوحيه ورسوله .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : حجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها .

(عُذْتُ بِرَبِّى) : التجأت إليه ، وتوكلت عليه .

(أَن تَرْجُمُونِ) : أن تقتلونى رجماً بالحجارة ، أو بغير ذلك .

(فَاعْتَزِلُونِ) : فخلونى واتركونى كفافا لالىَ ولا علىّ .

التفسير

١٧ - (وَلَقَد فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) :

حكت الآيات السابقة على هذه الآيات أحوال مشركى مكة ، وما كان منهم من معارضة دعوة النبى ﷺ وتورطهم فى العناد وإلحاق العذاب بالمؤمنين ، وتماديهم فى ذلك حتى استحقوا ما وقع عليهم من عذاب أليم ، بدخان مبين غشيهم من كل صوب وناحية ، واضطرهم أن يلجئوا إلى الرسول ﷺ ليدعو لهم برفع العذاب عنهم فقد آمنوا وتابوا ؛ وقد كشف الله عنهم العذاب قليلا ، وهو عليم بحقيقتهم . وسوء طويّتهم إمهالا لهم إلى الانتقام الأعظم والبطشة الكبرى يوم القيامة إن أصروا على كفرهم (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) وجاءت هذه الآيات تقرّر أن فتنة مشركى مكة لم تكن بدعا من النفوس البشرية ولا حَدَثا فريدًا فى الطبيعة الإنسانية ، وإنما جرت فيهم على سنن ما جرت عليه فى قوم فرعون وغيرهم من الأمم السابقة .

والمعنى : ولقد امتحنا واختبرنا قبل مشركى مكة قومَ فرعونَ بإرسال موسى عليه السلام إليهم فلم يكن منهم إلّا التمرد والعصيان ، وأصل الفتنة : وضع المعدن فى النار وَصَهْرُه لِتُعرف جودته وينفى خبثه ، أى : عاملناهم معاملة المختبر الممتحن ليظهر حالهم ، وتتضح حقيقتهم ، فأمهلناهم ، ووسعنا عليهم فى الرزق ووفرة النعمة ، فيكون معنى الفتنة ما يفتتن به الشخص ويغترّ به فيصرفه عما فيه صلاحه ، كما فى قوله -تعالى- : « إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ »[1] ومعنى (وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) أى : وشاهدوا من دواعى التذكر ، وموجبات الاتعاظ ما يوجب السمع والطاعة حيث جاءهم موسى -عليه السلام- وهو كريم على الله ، كريم فى نفسه ، متصف بالخصال الحميدة ، والصفات الجليلة حسباً ونسباً ،

---

(١) سورة التغابن ، من الآية : ١٥

لأن الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلَّا فى أحساب قومه ، وأشرف أنسابهم ، جامعاً لأنواع المحامد ، وكريم المنافع .

١٨ ، ١٩ ـ (أَنْ أَدُّوا إِلَىَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ) :

هذا مقول على لسان موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وقومه .

والمعنى (وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) وطلب منهم فقال : (أَدُّوٓا إِلَىَّ عِبَادَ اللهِ) أى : أطلقوا معى بنى إسرائيل ، وخلصوهم من الاستعباد والذُّل ، والعذاب والتسخير ، فهو كقوله تعالى: « فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ »[1] والتعبير عنهم بعباد الله للإشارة إلى أن استعبادهم ظلم وطغيان ، ويجوز أن يكون المعنى :أدوا إلىَّ ما آمركم به ، وأدعوكم إليه من الإيمان . وقبول الدعوة ، فيكون المقصود بعباد الله قوم فرعون .

وقوله ـتعالىـ : (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) تعليل لوجوب المأمور به ، أى : أدوا إلى ما أدعوكم إليه ، فإنى رسول من الله ، أمين على ما أُؤَديه ، وأدعوكم إليه ، قد ائتمنى ربىـ جل شأنهـ على وحيه وصدقنى بالآيات الباهرة ، والمعجزات الظاهرة .

(وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّىٓ آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) أى : أَدُّوا إلى عباد الله ولا تتجبروا ولا تتكبروا على الله بالاستعلاء على أمره ، والاستهانة بوحيه ورسوله ، لأنى آتيكم من جهته ـ تعالى ـ بسلطان مبين ، وحجة واضحة فى ذاتها . موضحة صدق دعواى لاسبيل إلى إنكارها ، ولا إلى الإنكار علىّ فى تبليغها .

وقال قتادة : « لَا تبغوا عَلَى الله » وقال ابن عباس : « لاتفتروا على اللهِ » والفرق بين البغى والافتراء أن البغْىَ بالفعل والافتراءَ بالقول .

وفى ذكر الأمين بعد الأمر بالأداء ، والسلطان بعد النهى عن العلو والاستكبار ـ فيه ـ من روعة الأُسلوب وجزالة التنسيق مالا يخفى .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٠٥ .

٢٠، ٢١ - (وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ، وإن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَاعْتَزِلُونِ) :
قيل إنه لمَّا قال : (وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى اللهِ إِنِّىٓ آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) توعَّدوه بالقتل فقال : (وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى . .) الآية .

أى : التجأت إليه وتوكلت عليه ليحفظنى من شركم، ويعصمنى من كيدكم، فلا ينالنى منكم أذى من شتم أو ضرب أو رجم بالحجارة ، وإن دمتم على كفركم ، وعنادكم؛ ولم تؤمنوا لى وتصدقوا دعوتى فاعتزلونى واجتنبونى وامنعوا عنى شركم وكفوا أذاكم فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم .

(فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾)

المفـــردات :

(فَأَسْرِ) : أمر من أَسْرَى ،أى :فَسِرْ بهم ليلاً ، وسرى من غير همز بمعنى سار ليلا .

(رَهْوًا) : مفتوحاً ، ويصح أن يكون (رَهْوًا) بمعنى (ساكناً) أى : اترك البحر ساكنا على هيئته بعد ما جاوزته ، من رها البحر : إذا سكن ، وبابه عدا .

(جَنَّاتٍ) : بساتين .

(وَعُيُونٍ) : جمع عين ، والمراد عين الماء .

(وَنَعْمَةٍ) النَّعمة – بالفتح – : التنعيم ، يقال : نَعَمَ الله فلانا فتنعم ، والنِّعمة – بالكسر – : ما أنعم الله به عليك ، واليد والصنيعة والمنة ، وكذلك النُّعمى .

(فَاكِهِينَ) : متنعمين ، (وقرئ فَكِهِينَ) بمعنى أَشِرين بطرين لا تؤدون حق النعمة .

التفسير

٢٢ – (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) : لما أدرك موسى –عليه السلام – تناهى قومه فى الكفر وإصرارهم على التكذيب واستيأس من هدايتهم ، وانقطع رجاؤه فى إيمانهم ، مع تماديهم فى الإيذاء ، دعا ربَّه أن يعذبهم وينتقم منهم وينزل بهم ما يستحقون ، وقوله تعالى : (أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) تعريض بالدعاء عليهم بذكر سبب ما يستحقون العقاب ، ولذلك سُمِّى دعاء ، أى : دعا ربَّه بأن هؤلاء قوم مجرمون يستحقون تعجيل العذاب ، قيل : كان دعاؤه : « اللهم عجل لهم ما يستحقون بإجرامهم » وقيل : هو قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[1] « وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »[2] .

٢٣ ، ٢٤ – (فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) :

قوله –تعالى– فأسر بعبادى على تقدير جملة قولية بعد الفاء ، أى : فقال له ربه عند دعائه : أسر بعبادى ليلا ، وهم بنو إسرائيل ، أو على تقدير القول قبلها ،أى : إذْ كان الأمر كما تقول فأسر ببنى إسرائيل ليلا ، فقد دبَّر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجى الله

---

(١) سورة يونس من الآية: ٨٥ .

(٢) سورة يونس آية: ٨٨ .

المتقدمين ، ويغرق التابعين ، فمعنى (متبعون) : يتبعكم فرعون وجنوده ، ليلحقوا بكم فيغرقوا ، فإن الله -تعالى- قدر عليهم الغرق ، قال القرطبي : وسير الليل فى الغالب إنما يكون عن خوف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدو فيتخذ الليل سترًا مسدلا فهو من أستار الله تعالى ، وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرٍّ أو جدب فيتخذ السرى لذلك ، وكان النبى ﷺ يسرى ويُدلج ، ويترفق ويستعجل بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطوا الإبل حظَّها من الأرض ، وإذا سافرتم فى السَّنةِ[1] فبادروا بها نِقْتها[2] » ولهذه المعانى ذكر الليل ، مع أن السرى لا يكون إلَّا ليلا ، وليدل ذكره على أن ذلك كله وقع فى جزء من الليل . (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) هذا تعليم لموسى -عليه السلام- بما يفعله فى سيره قبل أن يسير ، وقبل أن يلج البحر ، وعبارة الخطيب : « واترك البحر » أى : إذا سرت بهم ، وتبعك العدوّ ووصلت البحر ، وأمرناك بضربه بالعصا ودخلتم فيه ونجوتم منه فاتركه بحاله ، ولا تضربه بعصاك ليلتئم ، بل أبقه على حاله ليدخله فرعون وقومه فينطبق عليهم ، وقيل: كان ذلك الأمر بعد أن خرج من البحر وأراد أن يضربه ليلتئم .

والمعنى : واترك البحر بعد ولوجك فيه وخروجك منه -اتركه- مفتوحاً أو ساكناً ثابتا على هيئته عند دخولك فيه ، ليلجه فرعون وقومه خلفكم فيغرقوا (إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) أى : أنهم جماعة قدر الله عليهم الغرق فى البحر ، عقوبة لهم على عنادهم وإصرارهم على الكفر ، وتماديهم فى التجبر والضلال .

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ - (كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ • وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ) :

هذه الآيات انتقال بالحديث عما وقع لفرعون وقومه من عذاب وجزاء بالإغراق - انتقال من ذلك - إلى خسارتهم ما كانوا فيه من نعمة وشرف ، تعظيماً لعقابهم .

---

(١) السنة : الجدب .

(٢) نقتها - بكسر النون وسكون القاف منها -ومعناه : أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها .

والمعنى : كثيرًا جدًّا كانت لهم أموال وخيرات متعددة الأصناف والأنواع تركوها فى مصر من بساتين كثيرة وجميلة ، وعيون ثرّة يجرى ماؤها فى قنواتٍ بين الزروع والأشجار فتزيدها بهجة وروعة ، وكم تركوا فيها من زروع مختلفة الألوان والمطاعم متفاوتة الأشكال والمظاهر ، ومجالس شريفة ، ومحافل غاصّة ، ونواد خاصّة ، وغير ذلك من صنوف النعم وألوان الخيرات التى كانوا يتنعمون بها فاكهين متمتعين مسرورين لا يزعجهم إقلال ولا يخافون حرمانا ، وقرئ (فَكِهِينَ) بمعنى أَشِرِين بطرين لم يشكروا هذه النعم ولم يَحْمَدُوا عليها .

٢٨ ، ٢٩ - (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) :

أى : مثل ذلك التنعيم نعمناهم وأترفناهم فلم يقيموا لها وزناً فحرمناهم من هذه النعم كلها وأورثناها قوماً آخرين وهم بنو إسرائيل كما فى قوله تعالى فى سورة الشعراء : « كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ »[1] أى : أنهيناها إليهم سهلة سائغة فى غير جهد ولا مشقة ، وصارت لهم بعد أن كانوا مستعبدين فيها ، وصدق الله العظيم : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ[2] »

والمقصود من هذه الآية أنهم ورثوا من ملك فرعون فى أرض الشام ، التى هاجروا إليها وكانت تابعة لمصر فى عهد فرعون ، ولم يثبت تاريخاً أنهم عادوا إلى مصر بعد أن هاجروا إلى الشام ، (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) المعنى : أنزلنا بفرعون وقومه ما أنزلنا من إهلاك وإغراق واستئصال أموال وأحوال ، وأورثنا ما كان لهم من جنات وعيون وزرع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين أورثناها قوما ليسوا منهم فى دين ولا قرابة ولا ولاء ، فما بكت عليهم أرض ولا سماء ، لظلمهم وعدوانهم ، والمقصود من عدم بكائهما عليهم هوانهم على الله وسائر العالمين ، فالآية تمثيل للمبالغة فى تهوين شأنهم وتحقير أمرهم

---

(١) الآية : ٥٩

(٢) سورة الأعراف آية:١٣٧ .

وقوله -تعالى- : (وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) معناه : وما كان فرعون وقومه ممهلين ولا مؤجّلين من وقوع العذاب بهم حين جاءَ حينه وحضر وقته - ماكانوا مؤجلين - إلى وقت آخر أو إلى يوم القيامة بل عُجِّل لهم عذاب الاستئصال فى الدنيا لشدة جرمهم .

(وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾)

المفـــردات :

(الْعَذَابِ الْمُهِينِ) : العذاب البالغ الحد فى الإهانة .

(عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ) : متكبرا من المسرفين فى الظلم .

(عَلَىٰ عِلْمٍ) : على معرفة بحالهم .

(الآيَاتِ) : المعجزات .

(بَلَاءٌ مُّبِينٌ) : امتحان كاشف واختبار واضح .

التفسـير

٣٠ ، ٣١ - (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِين . مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ) :

هذه الآيات تمثل مرحلة أخرى من قصة قوم فرعون تقرر معانى الآيات السابقة . وتصرح بمفهومها؛ فإن هلاك فرعون وقومه ، ومآل ملكهم إلى بنى إسرائيل نجاة أية نجاة لهم .

والمعنى : ولقد كان فى إهلاكنا فرعون وقومه أن نَجَّينا بنى إسرائيل ، وخلصناهم من الاستعباد والتسخير والعذاب الممعن فى المهانة بقتل الأبناء واستخدام البنات وغير ذلك مما كان يقع عليهم من فرعون ذلك الطاغية المتجبّر المتناهى فى الشدة ، المسرف فى صنوف الإجرام .

وفى التصريح باسم فرعون مايشعر بأن مجرد ذكره كاف فى تصور مايصدر منه من العنت والفساد ، والتجبر والطغيان .

٣٢ ، ٣٣ـ(وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَافِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ) :

تضيف هذه الآيات إلى بنى إسرائيل فضلا آخر زائدا على فضل إنجائهم من عذاب فرعون .

والمعنى : لم يقف أمرنا مع بنى إسرائيل على تخليصهم من فرعون ، بل اصطفيناهم واخترناهم عالمين استحقاقهم لذلك بما يصدر عنهم من العدل والإحسان ، والفهم والإيمان بعد أن استقام أمرهم فى أواخر عهد موسى وفى عهد يوشع من بعده ، حيث فتح بهم أريحا ، وأطاح بالشرك فى هذا الإقليم ، وغير ذلك من حسن السيرة ، ولكنهم لم يحافظوا على هذه الاستقامة التى تأدبوا بها بعد عقابهم فى التيه أربعين عاما ، فبغوا فى الأرض فسلط عليهم غيرهم ، ومعنى (عَلَى الْعَالَمِينَ) أى : عالمى زمانهم ، فلا يلزم اصطفاؤهم على أمة سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله تعالى : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »[1] وقوله ـ تعالى ـ : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ »[2] .

وقيل : اصطفيناهم على العالمين بكثرة أنبيائهم .

(وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَافِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ) أى : وأنزلنا عليهم من المعجزات والبراهين كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات مافيه بلاء مبين

(١) سورة آل عمران من الآية : ١١٠ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .

أى : اختبار ظاهر وامتحان واضح من النعمة أو الشدة ؛لأن البلاء يكون بالشدة والرخاء ، والحرمان والعطاء « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً »[1] وماكان من هذه الآيات لموسى عليه السلام فهو لهم ، أيضا ، ومن أجل هدايتهم وإيمانهم ، فهو من جملة ما أوتوه فى الجملة .

وهكذا عرضت الآيات الشريفة فى ثنايا الكلام عن مشركى مكة فتنة قوم فرعون - ونظمتها - فى مراحل ثلاث :

(الأولى) : إرسال موسى -عليه السلام- إليهم ودعوته إياهم من قوله تعالى : « وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » إلى قوله تعالى : « وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَاعْتَزِلُونِ » .

(الثانية) : دعاؤه عليهم بعد أن استيأس من طاعتهم ، وضاق بعنادهم وكفرهم واستئصالهم بالغرق وانتقال أموالهم إلى بنى إسرائيل ، من قوله تعالى :(فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) إلى قوله تعالى : (وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) .

(الثالثة) : ماكان نتيجة طبيعية لهلاك فرعون وقومه من نجاة بنى إسرائيل واصطفائهم على عالمى زمانهم أو بكثرة أنبيائهم ، وإيثارهم بملك فرعون فى الأرض المباركة بالشام على علم وبصيرة بأحوالهم . من قوله -تعالى- : (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) .

(إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾)

(١) سورة الأنبياء من الآية ٣٥ .

المفـردات :

(هَٰٓؤُلَآءِ) : مشركى مكة .

(مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ) : الموتة التى نموتها فى الدنيا ثم لانحيا ولا نبعث بعدها .

(بِمُنشَرِينَ) : بمُعادين ولا مبعوثين مرة أُخرى .

(تُبَّعٍ) : لقب لملك سبأ كلقب كسرى لملوك الفرس ، ولقب قيصر لملوك الروم والمراد تبع الحميرى الأكبر .

التفسير

٣٤ ، ٣٥ـ (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ) :

عادت الآيات إلى مابدأت به فى أول السورة من الحديث عن مشركى مكة وعنادهم بعد أن ذكرت طرفا من أحوال قوم فرعون ، ومعارضتهم لموسى عليه السلام ومناهضتهم لدعوته ، وما حاق بهم من عذاب ، تحذيراً لقريش أن يصيبهم بسوء صنيعهم ما أصاب قوم فرعون، وتسأسية للرسول ﷺ فهى موصولة بقوله تعالى : (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ) قبلها ، وبقوله : (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) بعدها .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين من قريش ومن غيرهم ليصرون على الكفر والعناد وينكرون فى إصرار أَمْرَ البعث والجزاء ويقولون :(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ) أى : ما العاقبة وما نهاية أمرنا إلا الموتة الأُولى أى الوحيدة بعد حياتنا والتى نفارق بها الدنيا ثم لانعود بعدها ، ولايكون لنا نَشْرٌ ولا عود كما يخبر المؤمنون وصاحبهم ، فالمقصود بقولهم الموتة الأُولى : الموتة الوحيدة التى لاتتكرر ، ولايقصدون إثبات موتة ثانية .

٣٦ ، ٣٧ ـ(فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) :

قوله تعالى :(فَأْتُوا بِآبَائِنَا) استمرار فى الحديث عن إنكارهم البعث ، قيل : إن مشركى مكة طلبوا من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ تصديقا لأخبار البعث أن يدعو

الله ليُحيي لهم قصى بن كلاب ـ وكان فى أيامه كبيرهم ومستشارهم فى النوازل ـ ليشاوروه فى صحة النبوة والبعث ، فيدل ذلك على صدقكم إذا أحييتموه ، أو إذا سألناه فصدقكم ، والخطاب فى قوله : (فَأْتُواْ بِآبَائِنَآ) لمن وعدوهم بالبعث والنشور من الرسول والمؤمنين ، أى : فأحيوا لنا مَنْ مات من آبائنا إن كنتم صادقين فى دعوى قيام الساعة وبعث الموتى .

ولما كان قولهم هذا ينطوى على جهل ، وتجبر واستعلاء بعيداً عن الحجة جاء قوله تعالى : (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) يهددهم بأنهم ليسوا أعظم قوة ولا أعز منعة من هؤلاء الأقوام الذين أهلكهم الله بسبب إجرامهم .

والمعنى : أهؤلاء المشركون المنكرون للبعث خير فى القوة والمنعة والجاه والسلطان ، أم قوم تبع الأكبر الحميرى من أهل سبأ الذين كانت بساتينهم عن يمين وشمال والذين من قبلهم من عاد وثمود وأضرابهم .

وقوله تعالى : (أَهْلَكْنَاهُمْ) استئناف لبيان عاقبة أمرهم ، ونهاية بغيهم ، كما أن قوله تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ) تعليل لإهلاكهم ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب إجرامهم مع ماكانوا فيه من غاية القوة والمنعة فأنتم بالاستئصال أهون منهم ، لأنكم أضعف منهم قوة ، وأوهن شأناً .

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(لَاعِبِينَ) : لاهين عابثين .

(يَوْمَ الْفَصْلِ) : يوم القيامة الذى يفصل الله بين عباده فيه .

(مِيقَاتُهُمْ) : موعدهم .

(مَوْلًى) : صاحب يتولى معونة صاحبه ، أو ولى يتصرف فى أمور وليه ، من الولاية .

(الْعَزِيزُ) : الغالب الذى لايعجزه شىء .

(الرَّحِيمُ) : الواسع الرحمة .

التفسير

٣٨ ، ٣٩ - (وَمَاخَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَاخَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ) :

هذه الآيات دخول فى بيان حكمة البعث ، وإيضاح غايته تعميقا لإيمان المؤمنين وتسفيها لإنكار المنكرين .

والمعنى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من عوالم - ماخلقناهما - لاهين بخلقهما لغير غرض ، عابثين به فى غير غاية - ماخلقناهما وما بينهما - إلا بالحق . ملتزمين بصدق الغاية وتحقيق الحكمة ، وهو أن ينال كل إنسان جزاء عمله ، الخير بالخير والشرّ بالشرّ « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » ، ولكن أكثر الناس من الجهل وسفاهة العقل لايعلمون أن الأمر كذلك فينكرون ، مع أنهم يعلمون أن الله خالق كل ذلك وأنه حكيم ، وليس من الحكمة أن لايبعث الخلائق حتى يأخذ للمحق حقه ، ويعاقب المسىء .

ويجوز أن يكون الاستثناء من عموم الأسباب ، والمعنى : ماخلقنا السموات والأرض وما بينهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق ، وهو عبادة الله «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» ثم بعثهم وحسابهم وجزاؤهم .

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ - (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

هذه الآيات تهديد بملاقاة الجزاء بعد تقرير إمكان البعث ، وأنه سيكون ، أى : إن يوم القيامة الذى يفصل الله فيه بين الحق والباطل ، وبين المحق والمبطل ، هو موعد الخلق وميقاتهم أجمعين ، المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ليواجه كلٌّ جزاءَ ماقدم فإما ناراً وزقوماً وإما جنات ونعيما .

(يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) أى : يوم الفصل هذا يوم لايغنى صاحب عن صاحبه ، ولايعين قريب قريبه ، ولايغنى والد عن ولده ولا ولد عن والده ولايدفع حليف عن حليفه ، ولا تتعصب قرابات ، ولا تتناصر صلات «لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ »[1] لاتجد نصيرًا ولا مجيرًا (إِلَّا مَن رَّحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : لايمنع من عذاب يوم الفصل شىء ، ولا يمتنع عليه أحد إلا من يتجلَّى الله عليه بالرحمة والعفو وقبول الشفاعة فيه من المؤمنين ، إن الله هو العزيز الغالب الذى لاينصر أحدٌ من أراد عذابه ، الواسع الرحمة لمن أراد أن يرحمه .

وفى هذا الاستثناء تنفيس لهول الكربة ، وانفراج لِبَابِ الرحمة حتى لا ييئس عائذ ، ولا ينقطع رجاء لائذ .

(١) سورة عبس الآيات من ٣٧ - ٤٠ .

(إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(شَجَرَةَ الزَّقُّومِ) : شجرة مرة .

(الْأَثِيمِ) : كثير الإثم،والمراد : الكافر .

(الْمُهْلِ) : مايمهل ويصهر فى النار حتى يذوب ، وقيل : دُرْدِيٌّ الزيت .

(فَاعْتِلُوهُ) : فجروه بعنف ومهانة .

(سَوَآءِ الْجَحِيمِ) : وسط النار .

(تَمْتَرُونَ) : تشكُّون .

التفسير

٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ـ (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) :

هذه الآيات تصوير لنوع من العذاب الذى يتجرعه الكافر فى نار جهنم .

والمعنى : إن شجرة الزقوم هذه الشجرة المرة التى تنبت فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، إن هذه الشجرة طعام الكافر كثير الإثم يطعمها فتتنزل فى جوفه

غاية فى الحرارة كَدُرْدِيِّ الزيت ، أو دردى القطران يغلى فى جوفه كغلى الماء الذى بلغ أعلى درجات الحرارة فيقطع أمعاءه .

٤٧ ، ٤٨ـ (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَآءِ الْجَحِيمِ *ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ) :

يقال لزبانية جهنم:جرّوه فى عنف وشدة واحتقار ومهانة فارموه وسط النار،ثم ضاعفوا عليه العذاب فصبوا فوق رأسه من هذا العذاب مايحرق جلده ، فيجتمع عليه من العذاب عذاب الباطن والظاهر .

٤٩ـ (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) :

وقولوا له-زيادة فى الامتهان ،وإمعانا فى الإذلال والتقريع والتوبيخ-:ذق وتجرع من صنوف العذاب وألوانه ، فلطالما ادّعيت لنفسك فى كفرك وغُلَوَائك أنك أنت العزيز الذى لا يُذل ، الكريم الذى لايُمتهن ولا يبتذل .

روى أن أبا جهل عمرو بن هشام قال لرسول الله ﷺ : مابين جبليها أعز ولا أكرم منى ، فوالله ماتستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بى شيئا . لقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، فنزلت :

٥٠ ـ (إِنَّ هَٰذَا مَاكُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ) :

أى :إن هذا العذاب الذى تقاسون ، والجزاء الذى تلاقون ، إن هذا ما كنتم تنكرون وتشكُّون فيه ، وعدل الأُسلوب من الإفراد إلى الجمع باعتبار المعنى؛لأن المراد جنس الأَثيم .

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(أَمِينٍ) : يأمن صاحبه الآفات ، أو فناء نعيمه ونعمه .

(سُندُسٍ) : هو الحرير الرقيق .

(وَإِسْتَبْرَقٍ) : هو الديباج الغليظ شديد البريق .

(حُورٍ) : جمع حَوْراء ، من الحور : وهو شدة سواد العين فى شدة بياضها .

(عِينٍ) : جمع عيناء وهى واسعة العينين .

(وَوَقَاهُمْ) : وحفظهم .

(فَضْلًا) : تفضلا .

التفسير

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ) :

حكت الآيات السابقة عذاب الآثمين الكافرين ، وعددت ألوانه وصوره ، وجاءت هذه الآيات تعرض نعيم المتقين وهناءتهم ، لتتألف صورة متكاملة تمثل هوان الآثمين فى

عذابهم وذلّهم ومهانتهم ، وبهجة المتقين فى نعيمهم وعزّهم ومكانتِهم ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة .

والمعنى : إن المؤمنين المتقين الذين حققوا لأنفسهم الأمن ، وزكوها بعمل الصالحات الباقيات فَوَقَوْها من العذاب - إن هؤلاء المؤمنين - ينزلون يوم القيامة فى مقام أمين يـأْمنون فيه من الآفات والمنغصات ، ومن كل ما يكرهون ، لا يخافون من حرمان أو إقلال أو فوات .

وقوله : (فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) بيان للمقام الأمين ، وما يحتويه من ألوان النَّعِيم من بساتين مثمرة مورقة ، وعيون من الماء ثرة ، بين الأشجار والزهور دافقة ، وملابس متنوعة متفاوتة من رقيق الحرير ، وغليظ الديباج الأخاذ البرّاق مما كانوا يتحاشون استعماله فى الدنيا طاعة ، وتواضعا ، وعزوفاً عن نعيمها ، وهم بين هذا كله يتنعّمون بالجلوس على الأرائك متقابلين ينظر بعضهم وجوه البعض ولا يُعْرِض عنه؛ زيادة فى التكريم والنَّعيم .

٥٤ ، ٥٥ - (كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ) :

لا تزال الآيات موصولة فى وصف نعيم المتقين ، أى : الأمر كذلك ، أو مثل هذه الإثابة أثبناهم ، وقَرَنَّاهم زيادة فى النعيم بحور عين كثيرات ، من حور الجنة الجميلات اللاتى ترغب النفس فى النظر إلى وجوههن وعيونهن الجميلة .

وقوله-تعالى- : (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ) إشارة إلى أن نعيمهم لا يقف عند ما بين أيديهم وتحت نظرهم ، وإنما هو شامل لكل ما يخطر ببالهم من كل ما يشتهون ، أى : يدعون ويطلبون كل ما يحبون وما يشتهون من كل فاكهة فتتوفّر لهم ، لا يتخصص شىء منها بزمان أو مكان ، آمنين لايخافون من تعاطيها مضرّة أووجعا أو قلة أو نفادا .

٥٦ ، ٥٧ - (لَايَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ، وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى : ومن جملة ما يتنعمون به الخلود الدائم فى الجنّة لا يذوقون فيها الموت ، ولا يلحقهم إلا الموتة الأُولى التى فارقوا بها الحياة لينعموا بعدها بنعيم الآخرة ، والمقصود أنهم لايذوقون فيها الموت أبدا ، ولفظ (إلَّا) بمعنى لكن ، أى : لكن يذوقون الموتة الأُولى فحسب .

(وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) أى : حقق الله لهم هذا النعيم كله وحفظهم من العذاب وجنبهم دار الجحيم ، وفيه الإشارة إلى أن وقايتهم من عذاب جهنم وحدها أعظم نعمة ، وأجلّ تكريم ، فكيف إذا انضم إليها كل هذا النعيم .

وإنما خصهم بذلك ، وإن كان أهل الآخرة كلهم لايموتون ، لما فى ذلك من البشارة لهم بالحياة الهنيئة فى الجنة ، فأمّا من يكون فى النار ، وفيما هو فيه من الشدة والهول فإنه لا تطلق عليه هذه الصفة ؛لأنه يموت موتات كثيرة بما يقاسيه من أهوال ، وما يعانيه من عذاب ونكال ، ثم يحيا بعد كل موتة ليعود إليه العذاب ، وقوله تعالى : (فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) معناه : هذا الذى نالوه من ألوان النعيم فى الجنة نالوه وأُعطوه تفضلا من الله وتكرُّماً ، فإن جميع أعمالهم الصالحة لاتكافىء أبسط نعم الله عليهم فى الدنيا . ذلك الذى نالوه هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، لأنه خلاص من المكاره والمعاطب ، وتحقيق للمطالب والرغائب .

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(يَسَّرْنَاهُ) : سهلناه .

(بِلِسَانِكَ) : بلغتك العربية

(فَارْتَقِبْ) : فانتظر .

التفسير

٥٨، ٥٩ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ) :

تنتهى هذه السورة المباركة بمثل ما بدأت به من الحديث عن القرآن الكريم وإنزاله فى ليلة مباركة ، ليكتمل فيها شرف البدء والختام بالحديث عن أعظم كتاب وأصدق كلام .

أى : فإنما أنزلنا الكتاب المبين بلغتك وسهّلناه بنزوله قرآناً عربيا بلسانك ولسان قومك ليسهل فهمه وتدبّره لكى يتذكروا ، وينتفعوا بهديه ، فيعملوا بموجبه ، وإن لم يستجيبوا ويتعظوا فانتظر عاقبة أمرهم ، وما يحلّ بهم ، فإنهم منتظرون عاقبة أمرك وما يحلّ بك ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والعاقبة عند ربك للمتقين .

وفى الآية تكريم للرسول والعرب بنزول القرآن بلسانهم أى تكريم .

((سورة الجاثية))

سورة الجاثية من جملة سور «آل حم» لباب القرآن وعرائس آياته ، وهي سورة مكية ، وآياتها سبع وثلاثون آية .

نزلت بعد سورة الدخان على ماهو معروف من نزول سور « آل حم » جملةً مرتبة متتابعة.

وسميت سورة الجاثية لقوله-تعالى-فيها : (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) أى : باركة على الرُّكب مستوفزة ، وتسمّى أيضا سورة الشريعة ، وسورة الدهر لذكر هذه الألفاظ فيها ، والأصل أن تسمى السورة باسم أمر ذى بال مذكور فيها ، وغلب عليها هذا الاسم لما جاء فيها من الأهوال التى يلقاها الناس يوم الحساب حيث تجثو الخلائق على الرّكب فى انتظار الحساب ، ويغشاهم من الفزع مالايخطر على بال .

وبدأت بالحديث عن القرآن جريا على أسلوب السور التى تبدأ بِسَرْدِ حروف المعجم ، وليتصل أولها بآخر السورة التى قبلها .

اهدافها :

تناولت هذه السورة العقيدة الإسلامية ، وأفاضت فى الحديث عنها ، والتوسع فى تحقيقها ، فتكلمت عن الإيمان ، والوحدانية ، والرسالة المحمدية ، والقرآن والبعث والجزاء .

وقد بدأت كغيرها من سور «آل حم » بالكلام عن القرآن ، وإنزاله من العزيز الحكيم ، ثم عرضت لذكر آيات الله فى خلق السموات والأرض ، وما بثَّ فيهما من إنسان وحيوان ، وبدائع صنع ، وروائع حكمة ، وتجلّى هذا فى اختلاف الليل والنهار ، وتسخير الرّياح والأمطار ، وإنبات الزرع والأشجار ، وجرى البحور والأنهار ، ثم عرضت لأحوال الكافرين الذين يصمّون أسماعهم ، ويعطلون عقولهم ، فلا يتدبرون فى هذه الكائنات ولا يتّعظون بهذه الآيات ، ثم تنتقل إلى الحديث عن نعم الله تعالى على العباد ، وتسخير مافى السموات ومافى الأرض جميعا لتيسير حياتهم ، وتسهيل معاشهم ، وتُعَقِّب ذلك بأن لكل واحد جزاءه (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

ثم تتحدث عن بنى إسرائيل وما أفاء الله عليهم من النبوات والحكمة ، وما يسّره لهم من الطيبات ، وآتاهم من البينات والآيات فلم يكن منهم إلا الخلاف ، والاندفاع فى الطغيان والانحراف .

ثم تتجه الآيات إلى نبوّة سيدنا محمد ﷺ وأنها جاءت على منهاج واضح ، وشريعة مستقيمة يجب اتباعها ، والسلوك على هديها ، والبعد عن الأهواء وسلوك سبيل الطغاة الجاحدين الذين لا يفلتون من عذاب الله ، ولايكونون أبدا كالذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ثم خوّفت الآيات فى أسلوب شديد من اتباع الهوى والضلال على علم ؛ فيختم على السمع والقلب ، ويغشى النظر فلا يكون لصاحبه هداية ، ويندفع فى ضلاله فينكر البعث والجزاء ، وإذا تتلى عليه آيات الله ولّى مستكبرا معرضا عن الاتعاظ والاعتبار خلودا إلى الدنيا ، وغرورا بها ، وكفرا بالله الذى خلقهم ، وأحياهم ثم يميتهم ويجمعهم إلى يوم القيامة لاريب فيه ، وتدعى كل أمة إلى كتابها لتلقى جزاءها ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ، وأما الذين كفروا فيقال لهم : ألمَ تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم مجرمين . فاليوم جزاؤكم جهنّمُ لاتخرجون منها ولا تستعتبون .

ثم تنتهى آيات السورة بإثبات الحمد والكبرياء لله ربّ السموات والأرض العزيز الحكيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾)

المفردات :

(حمٓ) : حرفان من المعجم .

(الْكِتَابِ) : القرآن .

(الْعَزِيزِ) : القوى الغالب .

(الْحَكِيمِ) : العالم المتقن للأمور الذى يضع الشيء فى موضعه .

التفسير

١ ، ٢ - (حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

ختمت سورة الدخان بقوله - تعالى - : «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ» ثم بدأت هذه السورة بالحديث عن القرآن أيضا تنويها بفضله ، وإبرازا لمنزلته ومكانته ؛ وقوله تعالى : (حمٓ) سرد لحرفين من المعجم لاتشكيل على أواخرهما ، والكلام عنهما مثل الكلام عن سوابقهما من السور المبدوءة بحروف المعجم معنى وموقعا وإعرابا وبخاصة سورة البقرة .

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) : أضاف الله - سبحانه وتعالى - تنزيل القرآن إلى نفسه فى مواضع من السور استفتاحا بتعظيم شأنه ، وتفخيم قدره ، وما اقتضى هذا المعنى لايكون تكريرا .

(إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(يَبُثُّ) : ينشر ويفرّق .

(وَٱخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : وتعاقبهما وتفاوت أحوالهما .

(رِزْقٍ) : مطر يتسبب عنه الرزق .

(أَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) : أحياها بالزروع .

(مَوْتِهَا) : جفافها ويبسها .

(تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) : اختلاف أحوالها .

التفسير

٣- (إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

كلام مستأنف مسوق للتنبيه على الآيات التكوينية ، الآفاقية والنفسية ، أى : إن فى خلق السموات وما حوت من كواكب وأفلاك ، وفى خلق الأرض ومايجرى فى جوّها من طيور وسحب ، وما يختلف عليها من صحو وغيم ، وما يسمع فيها من رعد ، ويُرى من برق ، وفى خلق الأرض وبسطها وما بث فيها من خلائق وأجرى فيها من أنهار ، وأنبت من زروع ، وأرسى من جبال ، وأبدع من عجائب - إن فى هذا كله - لآيات وحججا تدل

على أن لها خالقا قادرا . ومدبّرا حكيما ، وعالما بصيرا -لآيات- ينتفع بها الذين يطلبون الإيمان ، وينشدون الهداية ، ويحسنون التدبّر فى الآيات ، والإذعان للمعجزات .

٤- (وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

المعنى : وفى خلق الله إياكم ، وما ينطوى عليه هذا الخلق من بدائع الصنعة ، وعجائب الخلقة ، واختلاف الأشكال والألوان ، والألسن والأجناس ، وما يتعاقب عليكم من أحوال وأطوار ، منذ أول نشأتكم ، وأنتم أجنّة فى بطون أمهاتكم حتى انتهاء آجالكم ، وفى خلق مايبثّ من دابة ، وما ينتشر على الأرض من أجناس الحيوانات ، وأصناف الحشرات مما يمشى على بطنه ، وما يمشى على رجليه ، وما يمشى على أربع أو أكثر ، مع اختلاف منافعها ، والمقاصد المطلوبة منها - إن فى هذا كلّه - دلائل وبراهين لقوم يطلبون الاطمئنان على وجود الصانع الحكيم ، وينشدون اليقين والاستقرار ليصل بهم ذلك إلى الإيمان والتوحيد ، والتزام الطاعة ، والسلوك السديد .

٥- (وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

أى : وفى اختلاف أحوال الليل والنهار من التعاقب والطول والقصر ، والحرّ والقرّ والنور والظلمة ، وما يتبع ذلك من تغاير الفصول ، واختلاف المنافع ، والمقاصد ، وفيما ينزل من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد يبسها وجفافها ، فينبت الزرع ، ويَحفُل الضرع ، وتجرى الأرزاق ، وتعمر الآفاق ، وفى تصريف الرياح فتهب مرّة جنوبا وأخرى شمالا ، وحيناً صَبا بالرحمة وماء السحاب ، وحيناً دَبُورا تبعث العذاب ، وفيما تؤديه من تزاوج النبات ، وتيسير سير السفن فى الأنهار والمحيطات - إن فى هذا كله - شواهد صدق وآيات حق لقوم يعقلون الآيات والأدلة ، ويحسنون الانتفاع بالعقل فيديرون فيها الفكر والرأى ، ليعلموا أن لهذه الأشياء صانعا حكيما ، وخالقا قادرا عظيما .

وفى تنكير الآيات فى المواضع الثلاثة تنبيه إلى كثرتها ، وتفخيمها كمًّا وكيفا ،

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

(وَيْلٌ) : هلاك ، وهى كلمة تقال للعذاب ، كما يقال : وَيْحٌ للرحمة .

(أَفَّاكٍ) : كثير الكذب .

(أَثِيمٍ) : مذنب كثير الإثم .

(يُصِرُّ) : يستمسك ويدوم .

(فَبَشِّرْهُ) البشارة فى الأصل : الخبر المغير للبشرة خيرا كان أو شرًّا ، وخصها العرف بالخبر السار ، واستعمالها فى الشر تهكم .

(مُسْتَكْبِراً) : متعالياً عن الإيمان بما سمع .

(هُزُواً) : سخرية واستهزاء .

(مِن وَرَآئِهِمْ) الوراء : اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام .

(الرِّجْزِ) : أشد العذاب ـ ويطلق أيضا على القَذر كالرجس .

التفسير

٦ ـ (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) :

هذه الآيات وعيد لمن لم يصدق الآيات السابقة فلا يؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر ، وبكل ماتجىء به والنبوات من الشرائع .

والمعنى : تلك الآيات من القرآن أو السورة أو ماذكر من السموات والأرض وما فيهما الناطقة بالبراهين على وجود الله ووحدانيته ، وكمال قدرته نقرؤها عليك ونتلوها مقرونة بالصدق ، لتبلِّغها وتقرأها عليهم ، فلا ينبغى أن يكون منهم إلاَّ تصديقها والإيمان بها ، فإنه ليس وراءها غاية ، ولا بعدها بيان ، وإذا لم يؤمنوا بها فبأَى حديث بعد حديث الله وآياته المفصلات يؤمنون ويصدقون ، فإنه لا أبين من هذا البيان ، ولا آيات أوضح من هذه الآيات فى صدق الدلالة ونصوع البرهان .

فالمقصود بالحديث القصص القرآنى الذى يستخرج منه عبر تميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، عن الإلَهيات وأحوال الآخرة .

٧ ، ٨ ـ (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

أىْ : هلاك وعذاب لكل مبالغ فى الكذب دائم عليه ، كثير الإثم ملازم للمعصية .

وقوله ـ تعالى ـ : (يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ) بيان لحال الأفاك المستحق للويل ، أو صفة له ، أى : يسمع هذا الأفاك الأثيم آيات الله من القرآن الكريم تتلى عليه وتقرأ ثم لايلبث بعد سماعها أن يغلبه جهله ويشده عناده وكفره فيعرض عنها ويصرّ على إنكارها ، ويقيم على هذا الكفر ويلازمه مستكبرا عن الإيمان بما سمعه متعظّما فى نفسه عن الانقياد للحق مثل غير السامع أصلًا .

(فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أى : فأخبره ساخرا مستهزئا بعذاب بالغ أقصى غايات الإيلام والإيجاع على إصراره ذلك .

٩ ، ١٠ - (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

كان النضر بن الحارث يشترى أحاديث الأعاجم يلهى بها عن القرآن ، ويعارضه ، ولما سمع أبو جهل قوله ـ تعالى ـ : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » سخر واستهزأ ، وأحضر تمرا وزبدا فجمع بينهما ، وأكل منهما وهو يقول فى سخرية : هذا هو الزقوم الذى يخوفنا محمد به ، نحن نتزقمه ، أى : نملأ به أفواهنا ، والمعنى : وإذا علم هذا الأفاك الأثيم وبلغه شىء من آياتنا من حجج أو وعيد بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على الاستهزاء بما علمه .

أولئك الكذابون الآثمون لهم عذاب بالغ المهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم ، وقوله ـ تعالى ـ : (مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ . .) . الآية :

أى : من قدامهم جهنم ؛ لأنهم متوجهون إليها ، وإلى ما أُعدّ لهم فيها ، أو من خلفهم بعد موتهم ، فإن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أو من قدّام ، ولا يغنى عنهم ما كسبوا من الأولاد والأموال ولا يدفع شيئا من عذاب الله ، كما لا يغنى عنهم ما اتخذوا من دون الله من الأصنام شيئا ، وإن زعموا غير ذلك . ولهم عذاب عظيم لا يقادر قدره ، واختلاف الفواصل للترق فى وصف العذاب تبعًا لتعاظم الذنب ، فالعذاب الأليم جزاءُ الإصرار على الإعراض عن الآيات ، والعذاب المهين جزاء للاستهزاء بها أشد وأبلغ ، والعذاب العظيم جزاء أوفى لاتخاذ آلهة غير الله .

١١ ـ (هَـٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ) :

بهذه الآية تختم آيات الوعيد .

والمعنى : أن القرآن الكريم فى غاية الكمال من الهداية كأنه الهداية نفسها ، والذين كفروا به وبآياته لهم عذاب من أشد العذاب وأقساه وقعا وألما .

وتنكير عذاب فى المواقع الثلاثة للتهويل ، وزيادة التخويف ، كما أن وضع آيات ربهم موضع الضمير لزيادة تشنيع كفرهم ، وتفظيع حالهم مع التنويه بمنزلة القرآن الكريم .

(* ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(سَخَّرَ) : ذلَّل .

(بِأَمْرِهِ) : بإذنه وتسخيره .

(يَغْفِرُوا) : يعفوا ويصفحوا .

(لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ) : لايتوقَّعون وقائعه بأعدائه ونقمته فيهم .

(لِيَجْزِىَ قَوْمًا) : لِيُكَافِئ المؤمنين الغافرين

(وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا) أى : ومن أساء فعلى نفسه أساء .

التفسير

١٢ - (اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

بعد أن ساق القرآن فيما تقدم من الآيات أدلَّة كونية وعقلية على عقيدة الإيمان وتوعد المخالفين الآثمين بما توعَّد . ذكر هُنَا بعض نِعَم الله وآلائه ، وفضله الَّذى

منّ به على عباده ، ليشكروه على مابه أنعم ، وليتفكّروا فى بديع صُنْعه ، وعظيم قُدرته فقال ـ سبحانه ـ : (اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ...) إلخ .

والمعنى : الله وحده ـ لاشريك له ـ هو الَّذى ذلَّل لكم البحر وهيأه وأعده سائلا يطفو عليه مايتخلخل كالأخشاب ، لِتَسير السفن فيه مَاخِرَة عُبَابه ، حاملة النَّاس وأرزاقهم ومتاعهم بأمره ـ سبحانه ـ وإذنه ، ولتطلبوا من فضله من خيرات البحر ومنافعه بالتِّجارة والصيد واستخراج المعادن ، ولكى تشكروه على حصول المنافع المجلوبة لكم من الأقاليم النَّائية ، فتُخْلِصُوا له الدين والعبادة .

١٣ ـ (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :

أى : وذلَّل لكم مافى السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بحرارتها وضوئها ، وسخر لكم مافى الأرض من دابة وشجر وزرع وبحار وأنهار وغيرها من جميع ما تنتفعون به ويُسَهِّل لكم سُبُل الحياة ، هذه الأشياء وغيرها كائنة منه ، وحاصلة من عنده ، فهو مُكَوِّنها ومُوجِدها بقدرته وحكمته ثم سخَّرها لخلقه .

إنَّ فيما ذُكر من نِعَمٍ لآيات عظيمة الشأن كثيرة العدد لقوم يتفكَّرون ويتدبرون فى بدائع صنعه تعالى وعظائم شئونه ـ جلَّ شأنه ـ فإنَّ ذلك يدعوهم إلى الإيمان به والشُّكر له .

١٤ ـ (قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) :

سـبب النزول :

حكى النَّحاس والمهدوى عن ابن عباس أنَّها نزلت فى عمر ـ رضى الله عنه ـ شتمه مُشرك من غفَار[1] بمكة قبل الهجرة فهم أَنْ يَبْطِش به فنزلت ، ورُوِى ذلك عن مقاتل ، وهذا ظاهر فى كونها مكِّية كأخواتها من آيات السورة (ذكر ذلك الآلوسى والزمخشرى) .

وقيل : إنَّ النبى ﷺ وأصحابه نزلوا فى غزوة بنى المُصْطَلِق على بئر يقال لها (المُرَيْسِيع) فأرسل ابن أُبىٍّ غلامه ليستقى فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له : ماحبسك ؟

---

(١) غفار : اسم قبيلة .

قال : غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى مَلَأَ قِرَبَ النبى - ﷺ وقرب أبى بكر ، فقال ابن أبى : ما مثلُنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سَمِّن كلبك يأكُلْك فبلغ ذلك عمر - رضى الله عنه - فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه فأنزل الله الآية ، وحكاه الإمام عن ابن عباس أيضا ، وهو يدل على أنَّها مدنية ، وكذلك ماروى عن ميمون بن مهران قال : لما أنزل الله قوله - تعالى - : (مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا . . .) إلخ قال فِنْحَاصُ اليهودى : آحتاج رب محمد ؟ فسمع بذلك عمر فاستلَّ سيفه وخرج فبعث النبى ﷺ فى طلبه حتى رده ، ونزلت الآية . (ذكره الآلوسى) .

والمعنى : قل - أيها النبى الكريم - للمؤمنين : اغفروا لمن أساء إليكم فيغفروا ويصفحوا عن الأذى الذى أصابهم من الذين لايتوقعون وقائع الله تعالى ، ولايخافون نقمته عليهم لكفرهم ، ولو عقلوا لخافوها وبدلوا بكفرهم إيمانا حتى لاتنزل بهم وقائعه ونقمه ، وقد أمر الله رسوله أن يبلغ المؤمنين أمره - تعالى - بأن يغفروا لمن أساء إليهم حتى لايشغلوا أنفسهم بقتالهم قبل أوانه ويتركوا أمر عقابهم لله تعالى فيجزيهم بما كانوا يكسبون .

١٥ - (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) :

الآية مستأنفة لبيان الجزاء المذكور فى الآية السابقة ، والمعنى : من عمل صالحاً فلنفسه الأجر والثواب على عمله ، ومن أساء بفعل القبائح وعمل السيئات فَعَلَى نَفْسِه أَسَاءَ ، فعليه وِزْرُ عمله وقُبْح فعله ، ثم إلى مُرَبِّيكم وخالقكم ومالك أُموركم تُرجعون وتعودون يوم القيامة فيُجَازيكم على أعمالكم خيرًا على الخير ، وشرًّا على الشّر .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾)

المفـردات :

(ٱلْكِتَابَ) : التَّوراة ، أَو هى والزَّبور والإِنجيل.

(وَالْحُكْمَ) : والقضاء بين الناس ، أَو الفقه فى الدِّين .

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) : وفضَّلناهم بكثير من نِعَم الدنيا على العالمين ،أَو فضَّلناهم فى الدين على عَالَمِى زمانهم الوثنيين .

(بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ) : أَدلَّة فى أَمر الدِّين ويندرج فيها المعجزات .

(بَغْيًا بَيْنَهُمْ) : ظلما وعداوة وحسدا .

(شَرِيعَةٍ) : منهاج وطريقة .

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) : ولا تتّبع مالاحجة عليه من آراءِ الجهال التابعة للشهوات .

(هَٰذَا) أى : القرآن .

(بَصَآئِرُ) : بينات واضحات .

التفسير

١٦ ـ (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ) :

والمعنى : ونقسم لقد أعطينا بنى إسرائيل التّوراة والزّبور والإنجيل والقضاء بين النّاس والحكم بما فى هذه الكتب ، والنُّبوة المُعْطاةَ من عند الله ، حيث أرسل فيهم كثيرًا من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لكثرة أمراضهم الخلقية وشدة مُخَالفتهم ، ورزقناهم من المُسْتَلَذَّات والخيرات المتنَوِّعة كالمنّ والسلوى وغيرهما من خيرات الشام ، وفضّلناهم بكثير من النِّعم فى الدنيا ـ فضلناهم ـ على العالمين حيث آتيناهم مالم نُؤْت غيرهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما ، فما رَعَوا هذه النِّعم حق رعايتها ، وما شكروا الله عليها ، فالمراد تفضيلهم على العالمين من بعض الوجوه ، فلا ينافى ذلك تفضيل أُمَّة مُحَمَّد ﷺ عليهم من جهة المرتبة والشَّرف والثَّواب ، قال ـ تعالى ـ : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » [1] وقيل : المراد بالعالمين عَالمُو زمانهم .

١٧ ـ (وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

وأعطيناهم دلائل ظاهرة وحججاً واضحة فى أمر الدين كمعجزات موسى ـ عليه السلام ـ وعن ابن عباس : آيات من أمر النّبى ﷺ وعلامات مبيِّنة لصدقه ، ككونه يُهَاجر

(١) سورة آل عمران من الآية : ١١٠ .

من مَكَّة إلى يثرب ويكون أنصاره أهلها إلى غير ذلك مِمَّا ذكر فى كُتُبهم ، فما وقع بينهم اختلاف فى ذلك الأَمر إِلَّا من بعدما جاءهم العلم ، فجعلوا ما يُوجب زوال الخلاف مُوجبا لحُدُوثه وحصوله ظلما وعداوة وحسدا منهم للنبى ﷺ ، وفى ذلك يقول الله – تعالى – فى سورة البينة : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » إِنَّ رَبك – أَيُّهَا الرسول – سيفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العدل فيما كانوا فيه يتنازعون ويتفرقون من أَمر الدين ، وسينال كل ما يستحقُّه من الجزاء ، وفى هذا تحذير لأُمَّة محمد أَنْ تسلك مَسْلكهم وتنهج منهجهم لئلاَّ يصيبها ما أَصابهم وما سيُصيبهم ، ولهذا قال سبحانه .

١٨ – (ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ) :

ثم جعلناك – أَيُّهَا الرسول ، بعد اختلاف أهل الكتاب – على طريقة واضحة ، ومنهاج قويم من أَمر الدِّين الَّذِى شرعناه لك ولِمَنْ سَبَقَكَ مِنْ رُسلنا ، فاتَّبع ما يُوحى إِليك مِنْ ربِّك وهو شريعتك الحقَّة الثَّابتة بالدلائل والحُجَج ، ولا تتَّبع مالا دليل عليه مِنْ آراء الجهال فى دينهم الباطل المبنىِّ على البدع والأَهواء .

قيل : المُراد بهم بنو قريظة والنَّضير ، وقيل : رؤَساء قُريش كانوا يقولون له ﷺ : ارجع إِلى دين آبائك ، واللَّفظ عام يصدق على كل مُعَوِّق عن طريق الحقِّ مُضِلٍّ عن الصِّراط المستقيم .

ولقد جاء فى البحر : الشَّريعة فى كلام العرب : الموضع الذى يَرد منه النَّاس فى الأَنهار ونحوها ، فشريعة الله حيث يرد النَّاس منها أَمر الله – تعالى – ورحمته والتقرب منه عزَّ وجل : (ذكره الآلوسى)

١٩ – (إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) :

الجملة مستأْنفة وهى تعليل للنَّهى السابق فى قوله – تعالى – : (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) أَى : أَنَّ الطَّامِعين فى اتِّباعك لهم ، الباذلين فى سبيل ذلك كل نفيس ، لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً لو اتَّبَعْتهم ، وإِنَّ الظَّالمين المتجاوزين حدود الله

بعضهم أنصار بعض وأعوان لهم على الباطل ، فلا تُوَالِهم باتِّباع أهوائهم ، ودم على ما أنت عليه مِنْ مُوَالَاتِك لله - سبحانه - والإعراض عمن سواه واتِّباع شريعته ، فذلك خُلُق المتقين وأنت قدوتهم وإمامهم ، والله ناصرهم وَوَلِيهم ، وشَتَّان بَيْنَ مَنْ كان وليُّه الشَّيطان ومَنْ كان وليّه الرّحمن وما أَبْيَنَ الْفَرْق بين الولايتين

٢٠ - (هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

أى : هذا القرآن الَّذى أُنزل عليك معالم للنَّاس ودلائل تبصِّرهم بالدِّين الحقّ ، وهو هُدى يعصمهم من الضَّلالة ويُرْشدهم إلى طريق الخير ومسالك البرّ ، ورحمة من العذاب لقوم يطلبون اليقين ، فإذا عرفوا دليل الحق آمنوا به ولم يجادلوا فيه .

(أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ) : اكتسبوا الكفر والمعاصى

والاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وفلان جارحة أهله ، أى : كَاسِبُهم .

(سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) : قَبُح ما يقضون به .

(أَفَرَأَيْتَ) أى : أنظرت من هذه حالُه فرأيت[1]

(مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ) : من اتخذ هواه معبودًا له فخضع له وأطاعه .

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) أى : تخلى الله عن هدايته لعلمه أنه يستحقُّ ذلك ، لاختياره له بعد بلوغ العلم إليه وإعراضه عنه .

(وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) : وأغلق سمعه فلا يقبل ما ينفعه ، وختم على قلبه فلا يعتقد حقا لإصراره على كفره .

(وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً) : غطاءً أو ظُلْمَةً فلا يُبصر دواعى الهدى .

(فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ) : فمن يهديه من بعد إعراض الله عنه؟ أى : لا أحد يهديه .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى : أتتركون النظر فلا تتعظون .

التفسير

٢١ ـ (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) :

استئناف مسوق لاستنكار التَّسوية بين حال المسيئين والمحسنين .

سـبب النزول :

جاء فى البحر عن الكلبى أن عُتبة وشيبة والوليد بن عُتبة قالوا لعلىّ ـ كرّم الله وجهه ـ ولحمزة ـ رضى الله عنه ـ وللمؤمنين : والله ما أنتم على شىء ولئن كان ما تقولون حقًّا لَحَالُنَا أفضلُ من حالكم فى الآخرة كما هو أفضل فى الدّنيا ، و (أَمْ) فى الآية بمعنى بل والهمزة لإنكار الحسبان ، أى : بل أَحَسِب .

---

(١) أبو حيان جعل (أفرأيت) بمعنى أخبرنى .

والمعنى : بل أحسب الّذين اكتسبوا ما يسيء إليهم من الكفر والآثام أن نُصَيِّرهم كالذين آمنوا وعملوا الصّالحات ونُسَوِّى بين الفريقين بعد الممات بالجنة ونعيمها كما يزعم الكافرون ؟ ! قَبُحَ ما يَقْضُون به مِن الحُكْم الجائر الّذى يُسَوِّى بين المحسنين والمسيئين ، فإنهم وإن تساووا محيا فى نحو الرزق والصحة لا يستوون مماتا ، فالمؤمنون فى روضة يحبرون ، والكافرون فى النار خالدون ، وقال الزّمخشرى: المعنى إنكار أن يستوى المحسنون والمسيئون محيا وأن يستووا مماتا لافتراق أحوالهم فى ذلك ، والآية مُتضَمِّنة للرد على الكفّار كما يُعرف بأدنى تدبّر ؛ لأنَّ الله إذا أنكر عليهم المُساواة فكيف بالأفضليّة ؟ ! قال ابن عطيّة : إنَّ لفظ الآية يعطى أنَّ اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالإيمان .

٢٢ - (وَخَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

الآية الكريمة دليل على إنكار حسبانهم السابق ؛ لأن خلق العالم بالحقّ المقتضى للعدل يستدعى انتصاف المظلوم من الظّالم والتّفاوت بين المسىء والمحسن ، وإذا لم يكن فى الْمَحْيَا كان بعد الممات حقًّا ، والمعنى : وخلق الله السّموات والأرض بالحكمة والصّواب دون العبث والباطل ، وأقام نظامهما على العدل والإنصاف لتظهر دلائل ألوهيته وأمارات قدرته وحكمته ، ولتُجْزى كلّ نفس بما فعلت من خير أو شرّ وهم لا يُظْلَمُون بنقص ثواب أو زيادة عقاب ، وذلك منه تفضّل وكرم ؛ لأنَّ الخلق عبيده يفعل بهم مايشاء ، ولكن شاءت حكمته وعدله ذلك ووعد به ، ووعده لا يتخلّف .

٢٣ - (أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

هذا القول الكريم تَعْجِيب مِنْ حال مَنْ ترك مُتَابعة الهُدى إلى مُطاوعة الْهَوَى فكأنه يعبد الهوى ، فالكلام على التّشبيه .

والمعنى : أنظرت فرأيت - أيها الرسول - حال من اتَّخَذَ إلٰهه هواه ، فهو مطواع لهوى النَّفس ، يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنَّه يعبده كما يعبد الرّجل إلهه :وقرئ (آلِهَةً هَوَاهُ) لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده ، فإذا وجد ماهو أحسن منه رفضه إليه أو أبقى عليه فكأنَّه اتَّخذ هواه إلها أو آلهةً شَتَّى يعبد كلّ وقت واحدا منها ، وأضلَّه الله فصرفه عن الهداية وخذله عن طريق الحقّ على علم منه - تعالى - بذلك ؛ لأنَّه علم أنَّ ذلك اختياره وإرادته وإصراره علية ، أو أضلَّه الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه وأغلق الله سمعه وقلبه فَحِيلَ بينه وبين أن يسمع ما ينفعه مِنَ الهُدَى ، أو يَعِى شيئا بعقله ويهتدى به ، وجعل على بصره غطاء وغشاوة ، فلا يُبصر الحقّ ولا يرى حجّةً يستضىء بها ؛ لأنه محجوب عن الاستبصار والاعتبار ، والكلام على التمثيل كما يُقرِّر ذلك العلّامة الآلوسى ، فمن يهديه من بعد إضلال الله إيّاه وإعراضه عنه وخذلانه له لاستحقاقه ذلك بإصراره على الكفر ؟ أى لا أحد يهديه ، (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى : أتتركون التفكر والنَّظر فلا تتذكّرون ولا تتّعظون ؟ .

(وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾)

المفــردات :

(مَاهِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) : ما الحياة إلّا حياتنا الدنيا الّتى نحياها .

(نَمُوتُ وَنَحْيَا) :يموت بعض ويولد آخرون ولامعاد ولاقيامة ، وسيأتى فى التفسير زيادة إيضاح .

(وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ) : وما يُهلكنا إلّا مُرور الزّمان .

(إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) أى : ماهم إلّا قوم يتوهمون .

(مَاكَانَ حُجَّتَهُمْ) أى : ماكان قولهم الّذى ساقوه مساق الحجّة وليس بِحُجّة .

(ائْتُواْ بِآبَآئِنَا) : أحضروا آباءنا أحياء فى هذه الدنيا بعد أن ماتوا .

(قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ) : يُخْرجكم إلى الوجود بعد أن كنتم نطفا .

(ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) : ثم يجمعكم أحياء فى يوم القيامة لا فى هذه الدنيا .

التفسير

٢٤ ـ (وَقَالُواْ مَاهِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) :

وقال المشركون : ما الحياة إلّا حياتنا الدنيا الّتى نحن فيها ولا حياة سواها .

(نَمُوتُ وَنَحْيَا) أى : تموت طائفة وتحيا أُخرى ولا حشر أصلا ، وقيل المعنى : نحيا ونموت ،يزعمون أن الحياة فى الدّنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة بالبعث ، وقيل : أرادوا بالحياة بقاء النّسل والذّريّة مجازًا ،كأنّهُمْ قالوا : نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا وذرارينا ، وقيل : نكون مواتا نُطفا فى الأصلاب ونحيا بعد ذلك . (وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ) أى : وما يفنينا إلّا طول الزّمان ومرور اللّيالى والأيّام ،وينكرون بذلك ملك الموت وقبْضه الأرواح بأمر الله .

وما يقولون ذلك القول وهو قصر حياتهم على الحياة الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدّهر ، ما يقولو نه عن علم صحيح ويقين معتمد على عقل أو نقل ولكن عن ظن وتخمين وتوهُّم وتخيُّل .

٢٥ ـ (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

أى : وإذا قُرئت عليهم آيات الله واضحات الدّلالة على قدرته تعالى على البعث ما كانت حجتهم فى رد البعث إلا قولهم ائتوا بآبائنا أحياءً فى هذه الدنيا إن كنتم صادقين فى أنّنا نُبْعَثُ بعد الموت ، وتسمية القرآن قولهم هذا حجّةً لسوقهم إيّاه مساق الْحُجَّة ، وعلى سبيل التّهكم بهم ، أى : ما كان حجّتهم إلّا ما ليس بحجّة ،والخطاب فى قوله تعالى : (ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) للرّسول والمؤمنين ، إذ هم قائلون بمقالته من البعث طالبون من الكفرة الإقرار به ، ويجوز أن يكون للرّسول وللأنبياء قبله الّذين يقولون مقالته .

٢٦ ـ (قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : قل ـ أيّها الرّسول ـ لهؤلاء المنكرين للبعث : الله يحييكم ابتداءً كما تشاهدون ذلك إذ يُخرجكم من النُّطف إلى هذا الوجود ، ثم يُميتكم عند انقضاء آجالكم ـ لا الدَّهر كما تزعمون ـ ثم يجمعكم أحياءً فى يوم القيامة للحساب ، لا شكّ فى هذا الجمع .

ودليل إمكانه : أنَّ من قدر على الخلق ابتداءً قادر على الإعادة، وهى عليه أهون ، ودليل وقوعه وحصوله : أنَّ البعث أمر مُمْكن ـ كما قدّمنا ـ وتقتضيه الحكمة لإعطاء كل ذى حق حقه ، وأخبر به الرّسول الصّادق ، وكلّ ما هو كذلك واقع لامحالة ، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون قدرة الله على البعث لإعراضهم عن التفكُّر فى الدّلائل ، والقادر على البعث قادر على الإتيان بآبائكم ، وهو من تمام الكلام الّذى أُمربه الرّسول ، أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقاً للحقّ ، وتنبيهاً لهم على أنّ ارتيابهم لجهلهم وعجزهم عن النظر والتّفكّر .

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(الْمُبْطِلُونَ) : أهل الباطل وهم الكفَّار .

(جَاثِيَةً) : باركة على الرُّكَب مُسْتَوفِزة ، وعن ابن عبّاس : جاثيةً : مُجتَمِعَة ، وعن السّدى جاثية : خاضعة بلغة قريش .

(كِتَابِهَا) : صحيفة أعمالها ، وأفرد على الجنس . (يَنطِقُ) : يشهد .

(نَسْتَنسِخُ) : نستكتب الملائكة أعمالكم .

التفسير

٢٧ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ) :

بيان للاختصاص المطلق والتصرف الكلى فى السّموات والأرض وفيما بينهما بالله - عزّوجلّ - إثر بيان تصرفه تعالى بالإحياء والإماتة والجمع والبعث للمجازاة ؛ فهو تعميم للقدرة بعد تخصيص ، يخبر الله تعالى أنه - وحده - مالك السّموات والأرض والحاكم فيهما والمسيطر عليهما فى الدنيا والآخرة ، ولذا قال : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) أى : وفى هذا اليوم - وهو يوم القيامة - يخسر أهل الباطل وهم الكافرون بالله المُكَذِّبون بما أنزله على رسله من الآيات ، المنكرون للبعث .

٢٨ ـ (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

وترى ـ أيُّها المكلف ـ كلّ أمّة من الأُمم المجموعة باركة على ركبها متحفّزة وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر لما يكره ، وذلك من عظم الموقف وهول المحشر ، كلّ أمّة تُدعَى إلى صحيفة أعمالها الّتى كتبها الحفظة لتُحاسَب على ما فيها ، ويقال لهم : اليوم تستوفون جزاء ماكنتم تعملون فى الدنيا من خير أو شرّ ، فنى الدنيا كان العمل ، واليوم يوم الجزاء على هذا العمل ، والمراد من كتاب كل أمة : كتاب كل واحد من مكلفيها .

٢٩ ـ (هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

هذا القول من تمام ما يقال لهم حينئذ .

والمعنى : ويُقَال لهم : هذا كتابنا الذى سجّلنا فيه أعمالكم ، يشهد عليكم بالعدل وينطق بالصّدق ، ويستحضر جميع ما عملتم من غير زيادة ولانقصان ، وعلَّل لشهادته عليهم بالحقّ فقال :

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : إنّا كُنّا نأمر الملائكة الحفظة أن تكتب أعمالكم لتُحَاسَبُوا عليها .

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ۚ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾)

المفـــردات :

(فِى رَحْمَتِهِ) : فى جنته . (مَا السَّاعَةُ) : أى شيء الساعة ؟ ما حقيقتها؟ .

(وَحَاقَ بِهِم) : وأحاط بهم ونزل . (نَنسَاكُمْ) : نترككم فى العذاب ترك المنسى.

(كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا) : كما تركتم الاستعداد للقاء ربكم فى هذا اليوم بالإيمان ، والعمل الصالح .

(آيَاتِ اللهِ) : القرآن . (هُزُوًا) : سُخريًا .

(وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) : وخدعتكم فاطمأننتم إليها . (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) : ولاهم يُطلب منهم الْعُتبى وهى أن يُرْضُوا ربهم بالتَّوبَةِ والاعتذار .

(الْعَالَمِينَ) : ماسوى الله ، وجُمع لاختلاف أنواعه .

(وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ) : وله وحده العظمة والجلال والسلطان .

التفسير

٣٠ – (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) :

هذه الآية والتى بعدها تفصيل للجزاء المترتب على قوله – تعالى – فيما تقدّم : (هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ) أو (الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعمَلُونَ) : لما فيه من الوعد والوعيد .

والمعنى : فأمَّا الَّذين آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصَّالحة الموافقة للشَّرع فيُدخلهم ربهم فى رحمته وهى الجنَّة ، كما ثبت فى الصَّحيح أنَّ الله تعالى قال للجنَّة : « أنتِ رحمتى أَرْحمُ بِكِ مَنْ أشاء » ذلك الجزاء وهو الإدخال فى الجنة هو الفوز الظاهر كونه فوزًا لا فوز وراءه .

٣١ – (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) :

أى : وأَمَّا الَّذين كفروا فيقال لهم تقريعًا وتوبيخًا : أَلم تأْتكم رُسلى فلم تكن آياتى تُقرأ عليكم فاستكبرتم عن اتِّباعها ، وأعرضتم عن سماعها ، وتعاليتم عن قبولها ، وكنتم قومًا كافرين لتكذيبكم إيَّاها ؟!

٣٢ـ (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) :

وإذا قال لكم رسول الله المُبَلِّغ عن ربّه - أيُّها المنكرون للبعث - : إنَّ ما وعدكم الله به من البعث والجزاء حقٌّ ثابت وواقع ، والسَّاعة لا شكَّ فى مجيئها ووقوعها قُلتم استغرابًا ، وتكذيبًا : ما نعلم ما السَّاعة ؟ أى شىءٍ هى ؟ وما حقيقتها ؟ ما نتوهَّم وقوعها إلَّا توهمًا مرجوحًا وما نحن بمتحققين أنَّها آتية .

وقيل : المعنى : وما نحن بمستيقنين إمكان السَّاعة ، أى :لا نتيقن إمكانها أصلًا فضلًا عن تحقق وقوعها المدلول عليه بقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا) فقولهم هذا ردٌّ لذاك .

قال الآلوسى : ولعلَّ المُثْبِتين لأنفسهم الظَّنّ من غير إيقان بأمر السَّاعة غَيْرُ القائلين : (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا . .) الآية فانَّ ذلك ظاهر فى أنَّهم منكرون للبعث جازمون بنفى السَّاعة ، فالكفرة صنفان : صنف جازمون بنفيها كأئِمَّتهم ، وصنف متردّدون مُتَحيِّرون فيها ، فإذا سمعوا ما يُؤثر عن آبائهم أنكروها ، وإذا سمعوا الآيات الْمتْلُوَّة تقهقر إنكارهم فَتَرَدَّدُوا ، ويحتمل اتحاد قائل ذاك وقائل هذا إلَّا أنَّ كُلّ قول فى وقت وحال ، فهو مضطرب مختلف الحالات ، تارة يجزم بالنَّفى فيقول : (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا . . .) الآية ، وأُخرى يظنّ فيقول : (إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا) إهـ :آلوسى بتصرف .

٣٣ـ (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

وظهر حينئذ لهؤلاء الكُفَّار سيئات ما عملوا ، أى : قبائح أعمالهم ، فإن العقوبة دليل على ذلك ، أو سيئات ما عملوا ، أى : جزاء أعمالهم السيئات. وأحاط بهم من كل جانب العذاب والنَّكال جزاء استهزائهم بآيات الله وسخريتهم منها .

٣٤ـ (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

وقيل لهؤلاء المشركين من قبل رب العزة توبيخًا وتقريعًا : اليوم نترككم فى العذاب كما ترکتم الاستعداد للقاء ربّكم فى هذا اليوم بالتّقوى والإيمان ، ونجعلكم بمنزلة الشّيء المنسى الذى لايبالى به كما لم تُبَالوا أنتم بلقاء ربّكم هذا ولم تخطروه ببال فأنتم كالشّيء الّذى يطرح نسيا منسيا ، ومقرّكم ومنزلكم النّار ، وليس لكم من ناصرين ينقذونكم من عذابها ولا مانعين لكم ومدافعين عنكم من ويلاتها وعقابها .

وقد ثبت فى الصّحيح أنّ الله يقول لبعض العباد : ألم أزوّجك ؟ ألم أُكرمك ؟ ألم أُسَخِّر لك الخيل والإبل ؟ فيقول : بلى ياربّ ، فيقول : أظننت أنّك ملاقىّ ؟ فيقول : لا فيقول الله ـ تعالى ـ : « فَالْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي » ذكره ابن كثير .

٣٥ ـ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ :

ذلكم العذاب الّذى نزل بكم والجزاء الّذى جازيناكم به لأنّكم كفرتم بالله واتّخذتم قرآنه وحُجَجَه ومُعجزاته سُخريًّا ، تسخرون منها وتهزءون بها ، وخدعتكم الحياة الدّنيا بزينتها وزُخْرفها فاطمأننتم إليها ووثقتم بها ، وحسبتم أنْ لاحياة سواها ولاحياة لكم بعدها ، فاليوم لايستطيع أحد إخراج هؤلاء من النار ولاهم يُطلب منهم أنْ يُعتبوا ربهم سبحانه ، أى : ولا هم يطلب منهم إرضاؤه بالتّوبة والاعتذار لفوات الأوان ، والالتفات فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم من رتبة الخطاب استهانة بهم .

٣٦ ـ ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ :

هذه الآية تفريع على ما اشتملت عليه السّورة الكريمة ، فقد احتوت على آلاء الله وأفضاله واشتملت على الدلائل الكونية ، وانطوت على البراهين السّاطعة والنّصوص القاطعة فى المبدأ والمعاد .

والآية إخبار عن استحقاقه - تعالى - الحمد وحده؛ لأنه رب السّموات والأرض ورب العالمين ، ويجوز أن يراد بها الإنشاء وهو طلب الحمد لله ، والمعنى : فللّه وحده الحمد والثّناء فاحمدوه وحده فهو خالق السّموات والأرض وما بينهما وما فيهما وربُ ذلك كله ، وهذه الربوبيّة تُوجب تخصيص الحمد بالله على نعمه الكثيرة وآلائه العظيمة .

٣٧ - (وَلَهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

وله - وحده - العظمة والملك والسلطان والكمال ، فهو سبحانه الّذى كلُّ شيء خاضع لديه فقير إليه ، وقيل الكبرياء : كمال الذّات وكمال الوجود ، وخُصّ ذلك بالسّموات والأرض لظهور آثار الكبرياء وأحكامها فيها ، وقد ورد فى الحديث الصّحيح : «العَظمةُ إزارى والكبرياءُ ردائى ، فَمَن نازَعنِي واحدًا مِنْها ، أَسْكَنْتُه نارى » ذكره ابن كثير .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) الّذى لايُقْهر (الْحَكِيمُ) فى كل ماقضى وقَدّر ، يضع الشّىء فى موضعه .

وفى هذه الجمل إرشاد - على ماقيل - إلى أوامر جليلة ، كأنّه قيل : له الحمد فاحمدوه ، وله الكبرياء فكبّروه ، وهو العزيز الحكيم فأطيعوه - عزّ وجلّ - وجعلها بعضهم مجازا أو كنايات عن الأوامر المذكورة . والله أعلم .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٢٥٩٠ — ١٩٨٧ — ٢٥٠٠٤



٢٥